



# دراسات فى تاريخ الدولة العثمانية

- ١ - الدولة العثمانية والمغرب العربى  
- الجزائر تحت الحكم العثمانى  
- ليبيا " طرابلس الغرب خلال الحكم العثمانى "  
- تونس تحت الحكم العثمانى  
- العثمانيون ومراكش
- ٢ - موقف الدولة العثمانية من الثورة العرباوية
- ٣ - الإدراسة فى المخلاف السليماني وعسير

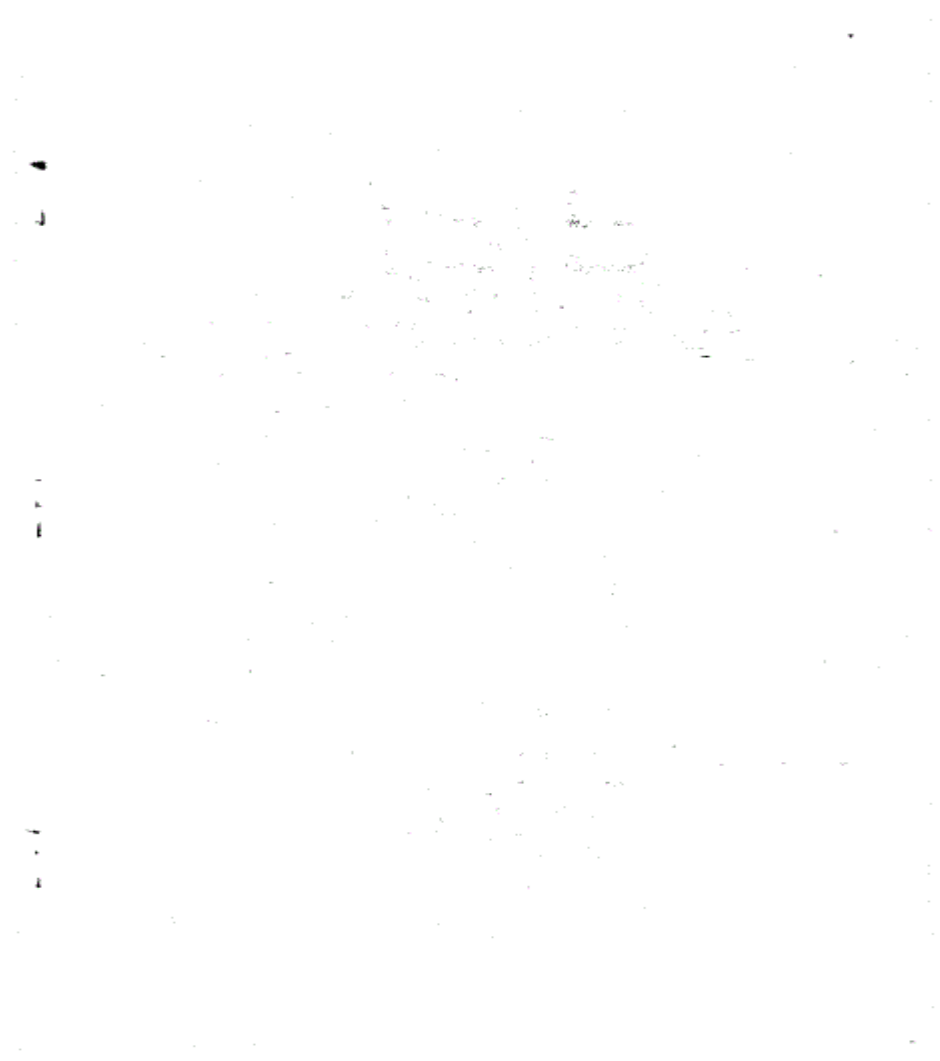
دكتور

عبد المنعم إبراهيم الجميحى

أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر

ورئيس قسم التاريخ

بفرع جامعة القاهرة بالفيوم



## الدولة العثمانية والمغرب العربي مقدمة

لا شك أنه يهم كل مواطن عربي أن يلم بأحوال أي جزء من وطنه الكبير ، وأن يتعرف على أحوال مواطنيه ، وظروفهم السياسية والاقتصادية والاجتماعية .

وعلى الرغم من أن لبلاد المغرب العربي منزلة خاصة في القلوب نظرا لأنهم أحفاد المجاهدين الأوائل الذين لهم ماض عريق ، ودور فعال في أحداث العالم الإسلامي فإن الكتابة في تاريخ المغرب العربي خلال الحكم العثماني لا تزال جد قليلة خاصة في المراكز العلمية بالشرق العربي . فلا تزال الجامعات ومراكز البحث الأساسية بها لا تولي تاريخ هذه البلاد الاهتمام الذي يستحقه رغم أهميته في مسار السياق التاريخي للعالم العربي . حقيقة أن الفتح العربي لشمال إفريقيا في القرن السابع الميلادي قد حقق الوحدة السياسية لهذه المنطقة لأول مرة في تاريخها إلا أن هذه البلاد تعرضت للعديد من المخاطر خاصة من إسبانيا المجاورة التي كان يساندنها في ذلك فرسان القديس يوحنا لدرجة أن الإسبان استطاعوا السيطرة على النقاط الرئيسية من سواحل المغرب الأوسط إلى أن تدخل العثمانيون لإنقاذ هذه البلاد ووضعوا حدا للتدخل الإسباني فيها .

قد يتساءل البعض عن أصل الأتراك العثمانيين والسبب الذي دفعهم لمد سيطرتهم على بلدان المغرب العربي ؟

الواقع أن الروايات تختلف حول أصل الأتراك العثمانيين ، وإن كان العديد من المؤرخين يرجع نسبهم إلى إحدى قبائل "الغز" التي كانت تقطن أواسط آسيا ثم نزحت تحت الضغط المغولي صوب آسيا الصغرى والأناضول في القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي . وقد استجاب

السلطان "علاء الدين" لطلب هذه القبيلة بمنحها مكانا تستطیع فيه الاستقرار فيه فأقطعها عدة أقاليم ومدن ، وصار يعتمد عليها في حروبها . وظلت هذه القبيلة بقيادة "أرطغرل" في خدمة السلطان علاء الدين . ولما توفي "أرطغرل" تولى ابنه الأكبر عثمان مكانه وهو الذي تنسب إليه الدولة العثمانية .

وقد نهج عثمان نهج والده في الجهاد وذاع صيته ، ثم انفتح المجال أمامه بعد سقوط دولة سلاجقة الروم ، و وفاة السلطان علاء الدين فاستقل بما تحت يده من بلاد واتخذ من مدينة "بني شهر" عاصمة له ، ودعا نفسه بسلطان العثمانيين .

وهكذا بدأت الدولة العثمانية على يديه ، واعتنق العثمانيون في عهده الإسلام، وأصبح عقيدتهم الدينية الرسمية . وبعد وفاة عثمان في عام ١٣٢٦م واصل ابنه "أورخان" ومن جاء بعده السير على سياسته . واستطاع العثمانيون أن يملأوا التاريخ أحداثا ، ومرت عليهم مظاهير عديدة من الحضارات ، وأصبحت إمبراطوريتهم مترامية الأطراف حيث امتدت أقاليمها وولاياتها في آسيا وأوروبا وأفريقيا وأصبحت أكبر دولة إسلامية يشهدها التاريخ فكانت حدودها تمتد شمالا إلى بلاد المجر في أوروبا وتشمل أراضيها كلا من بلاد اليونان واليوننة والهرمك، والجيل الأسود ، وألبانيا ، وبلغاريا، والمجر والبيغان وتمتد شرقا من حدود ولاية جورجيا إلى حدود داغستان وما يلي ذلك من الشرق والجنوب والغرب أرمنيا والأناضول وما بين النهرين ، وبلاد العرب وسورية ومصر والسودان وبقية وطرابلس وتونس .

وفي تاريخ الدولة العثمانية الكثير من الدروس سواء أكان ذلك في مجال الحرب أو في مجال السلم . وقد توالى على عرشها ستة وثلاثون سلطانا كان منهم من لا يأتي الدهر بمنتهى إلا على فترات من الزمن ، وكان

منهم بين بين ، كما كان منهم من لا يصلح مطلقا لتولى هذا المنصب الخطير الذى وصل إليه عن طريق الوراثة مما ساعد فى النهاية على ذلك أركان هذه الدولة ، وظلت الفتوحات العثمانية تتجه غربا حتى عهد السلطان سليم الأول (١٥١٢-١٥٢٠م) الذى اتجهت الفتوحات العثمانية فى عهده نحو الشرق حيث تمكن من مد سلطانه إلى الأناضول وبلاد الشام ومصر والجزيرة العربية .

وفى عهد السلطان "سليمان القانوني" (١٥٢٠-١٥٦٦م) وصلت حدود الدولة إلى معظم بلدان المغرب العربى - عدا مراكش - بهدف إنقاذه من هجمات الإسبان وفرسان القديس يوحنا الذين قاموا بملاحقة المسلمين هناك ، واستطاعوا وقف هجماتهم ، وتخليص هذه البلاد من سطوتهم .

والجدير بالذكر أن فتوحات العثمانيين للشام ومصر جاءت من منطلق التنافس وسوء العلاقات بينهم وبين المماليك ، أما بالنسبة لبلدان المغرب العربى وبالذات الجزائر وليبيا حدثت بناء على طلب الأهالى الذين طالبوا الدولة العثمانية : بتخليصهم من الهجمات الصليبية ضد بلادهم وقد تم لهم ما أرادوا وتحولت مسئولية الجهاد هناك من الجهود الفردية للمجاهدين إلى مسئولية أكبر دولة إسلامية وقتذاك لديها العديد من القوات البرية التى تتميز بالنظام والانضباط هذا بالإضافة إلى أسطول قوى بذلت الجهود العديدة لتشييده لمواجهة أعداء الإسلام والمسلمين .

ويعد الجزائر أول قطر عربى يدخله العثمانيون ، ويتخذون منه قاعدة لمد سيطرتهم على طرابلس الغرب (ليبيا) وتونس فى محاولة منهم للحفاظ على إسلام وعروية سكان شمال أفريقيا من أخطار الغزو الاستعمارى الأوروبى وتكوين جبهة إسلامية لمواجهة أخطار الزحف الصليبي . أما بالنسبة لمراكش فإنها لم تدخل تحت السيادة العثمانية نتيجة لتمسك الأشواف

السعديين بإبعاد النفوذ العثماني عن بلادهم ، ولقدرتهم في المحافظة على استقلال بلادهم من أطماع الإسبان حتى أوائل القرن العشرين .

وقد نجحت الدولة العثمانية في المحافظة على المقومات الأساسية لبلدان شمال أفريقيا ، وهي الدين الإسلامي ، واللغة والثقافة العربية والإسلامية وإبعاد الزحف الاستعماري عن هذه المناطق لفترة تراوحت بين ثلاثة وأربعة قرون وتبعاً لذلك فقد تم تقسيم هذه الدراسة إلى أربعة فصول تناول الفصل الأول المعنون "الجزائر تحت الحكم العثماني" جهاد الجزائريين لإنقاذ بلادهم من الهجمة الصليبية ، وطلبهم النجدة من أكبر دولة إسلامية في ذلك الوقت وهي الدولة العثمانية واستجابة السلطان سليم الأول العثماني لطلبهم ، ودخول الجزائر تحت الحكم العثماني ، والارتكاز عليهم لتحرير باقي مدن وبلدان المغرب العربي من أيدي الإسبان ، كما تناول هذا الفصل نظام الحكم العثماني في الجزائر وأحوال هذه البلاد الاقتصادية والثقافية خلال هذه الفترة .

وتناول الفصل الثاني المعنون "ليبيا في ظلال الحكم العثماني" استجداد أهل طرابلس بالسلطة العثمانية لحمايتهم من أخطار الهجمة الصليبية الشرسة ضد بلادهم ، وموافقة السلطان سليمان القانوني على طلبهم ، ونجاح القوات العثمانية في طرد فرسان القديس يوحنا من ليبيا وجعلها قاعدة للأسطول العثماني في البحر المتوسط ، كما تناول هذا الفصل أحوال ليبيا الاقتصادية ومظاهر الحياة الثقافية خلال فترة الحكم العثماني .

وتناول الفصل الثالث المعنون "تونس تحت الحكم العثماني" الصراع المرير الذي دار بين العثمانيين والإمبراطورية الرومانية المقدسة والذي كان يحكم باسمها وتحت حمايتها "الحسن الحفصي" حتى تمكنت الدولة العثمانية إعلان تبعية تونس لها كما تناول هذا الفصل أحوال تونس الاقتصادية والاجتماعية خلال فترة الحكم العثماني لها .

أما الفصل الرابع المعنون "العثمانيون ومراكش" فقد تناول أسباب بقاء مراكش خارج السيطرة العثمانية وتمكنها من الاحتفاظ بشخصيتها الإقليمية بعيدا عن العثمانيين والإسبان أما الخاتمة فقد شملت أهم نتائج هذه الدراسة .  
ولخيرا أمل أن أكون قد وفقت في إلقاء الضوء على تاريخ المغرب العربي الحديث في ظل الحكم العثماني ، وأن أكون قد تمكنت من إضافة شيء جديد للمكتبة التاريخية .

والله ولي التوفيق ،،

أ.د. عبد المنعم الجميحي

الإسكندرية - زهراء العجمي

سبتمبر ٢٠٠١





## الفصل الأول

### الجزائر تحت الحكم العثماني

بعد سقوط الأندلس في يد القوى الصليبية ، حاول البرتغاليون والإسبان السيطرة على شمالي أفريقيا ، وطمس عروبة أهالي هذه البلاد وتتصيرهم . وقد وقف أهالي هذه المناطق لهذه المحاولات بالمرصاد وقاموا بمجاهدة البرتغاليين والإسبان ، وكان على رأس هؤلاء المجاهدين "عروج" وأخوه "خير الدين بربروسا" ، و"حسن باشا" و"صالح ريس" وغيرهم فقد كانوا مثلاً أعلى في البطولة والفداء في المعارك التي خاضوها ضد التكتلات الصليبية التي أرادت النيل من بلادهم لدرجة أن شخصية مثل "عروج" ذاع اسمها بين الأهالي بعد أن حقق أمانيتهم في استرداد الموانئ التي نجح الإسبان في الاستيلاء عليها ، كما استطاع أن يؤسس حكومة عسكرية تحت قيادته إنضم إليها العديد من القبائل وسكان المدن وتمكن من خلالها الاستيلاء على أقاليم الجزائر الواحد بعد الآخر ، يضاف إلى ذلك أنه قام بتوحيد جيود مراكب الجهاد التي كانت تجاهد القوى الصليبية في البحر المتوسط .

ونتيجة لاستشهاد عروج في إحدى المعارك مع الإسبان خلال حصار مدينة تلمسان فقد تولى شقيقه "خير الدين بربروسا" Barberoussa أي صاحب القلعة الحمراء أمور الجهاد . ونتيجة لضعف موقف خير الدين بعد مقتل أخيه خاصة وأنه كان في حاجة إلى العتاد والسلاح فقد استنجد بالدولة العثمانية وهي وقتذاك أكبر قوة إسلامية لها من ماضيها القريب في خدمة الإسلام والدأب على توسيع رقعته في شرق أوروبا ، ولها من أسباب القوة ، وخاصة بحريتها النامية في شرق البحر المتوسط بإمكانها من افتتاح حلبة الصراع الصليبي في الحوض الغربي من البحر وتبديل مصائره لصالح

الإسلام والمسلمين . فأرسل "خير الدين" وفدا إلى السلطان "سليم الأول" برئاسة "أبو العباس أحمد بن القاضي" الذي اشتهر بجهاده ضد الإسبان لتصوير أوضاع المسلمين المتردية في الجزائر ، وعرض أبعاد القضية عليه ، ومطالبته بربط مصير الجزائر السياسى بالدولة العثمانية ، وتقديم المساعدات العسكرية لها حتى تتمكن من قيادة عمليات الجهاد الدينى ضد الإسبان خصوصا وأن النزاع بين القبائل أدى إلى توغل الإسبان في السواحل الجزائرية .

وبعد أن وصل الوفد إلى استنبول قابل الوزير الأعظم ثم السلطان الذى رحب بوضع الجزائر تحت السيادة العثمانية ، وأرسل إلى "خير الدين" فرمانا سلطانيا منحه لقب باشا ، وعينه حاكما عثمانيا على الجزائر برتبة "يكلربيك" أى أمير الأمراء وهو من أعظم ألقاب الدولة كما أرسل إليه ألفين من الجنود الإنكشارية وبعض الأسلحة والذخائر ، وسمح له بجمع ما يشاء من المتطوعين الراغبين فى الانضمام إلى صفوف المجاهدين ، يضاف إلى ذلك أنه أعطى "خير الدين" لقب قيودان وهو رتبة عسكرية تمكنه من قيادة الأساطيل العثمانية ، وتمنحه العديد من الاختصاصات العسكرية التى تجعله قائدا أعلى للقوات المسلحة فى بلاده . ونتيجة لذلك دخلت الجزائر رسميا تحت السيادة العثمانية ، وتحقق لبربروسا الحصول على القوات اللازمة لصد الهجوم الإسبانى على بلاده وأصبحت الجزائر مركزا عثمانيا لمجابهة الإسبان ومخططاتهم ، وقاعدة لتوسيع رقعة الحكم العثمانى فى شتى أنحاء بلاد الغرب ، وإلى جانب ذلك فقد نودى على منابر مساجدها باسم السلطان العثمانى ، وصارت العملة تنك باسمه .

وقد قام "خير الدين" باستحداث بعض التنظيمات التى تكفل قبول سكان الجزائر للحكم العثمانى كما تمكنه من التصدى للإسبان فعمل على بقاء حكم البلاد الداخلى لأبنائها حيث قسمها إلى قسمين قسم شرقى يشمل المناطق

الجبالية التي تقطنها القبائل وتمتد إلى الحدود التونسية ووضع على رأسها الشيخ "أحمد بن القاضي" وقسم غربي يمتد من مدينة الجزائر إلى حدود دولة بني زيان ووضع على رأسه السيد "محمد بن علي" في حين ترك لمدية الجزائر السلطة العليا ومباشرة أمور الحرب والسياسة ، وكان على رأسها "خير الدين" الذي حكم البلاد حكما شوريا ، فأسس إدارة لدراسة القوانين واللوائح وكل ما يصدر به أوامر ، كما كون مجلسا من كبار رجال الدولة وقادة الجيش لإدارة شؤون البلاد ، وإلى جانب ذلك فقد قرب أهل الجزائر إليه للتعرف على رغباتهم ومشاكلهم .

وخلال ذلك حاولت إسبانيا زعزعة استقرار الوجود العثماني في الجزائر عن طريق مساندة بعض المنافسين لخير الدين لكن محاولاتها باءت بالفشل كما برزت قدرة "خير الدين" في التصدي للأسطول الإسباني الذي واصل غاراته البحرية على الجزائر فشن عليه هجوما غم على أثره العديد من السفن ، وأسر بعض ملاحها .

وبعد أن هبطت حدة الصراع بين الدولة العثمانية وإسبانيا في شمال إفريقيا ، واطمأن العثمانيون لإبعاد أخطار الغزو الإسباني عن تلك الأقطار الإسلامية بدأت سلطة الدولة في التراجع وقنع السلطان العثماني بمظاهر السيادة فقط طالما استطاعت تلك الولايات أن تحفظ كيانتها من الضغط الأجنبي يومئذها الخاصة ، وقتعت الدولة بالتضامن الإسلامي العام الذي كان كفيلا بالإبقاء على روابط الولاء . وقد يرجع أسباب تراخي سلطة الدولة العثمانية في الجزائر إلى بعد المسافة التي تفصل بينها وبين عاصمة الدولة ، وإلى ضعف البحرية العثمانية خاصة بعد هزيمة الأسطول العثماني في معركة ليبانتو عام ١٥٧١ ومن ثم لجأت الجزائر إلى تنظيم أداة الحكم وإدارة الحرب فيها على نحو يكفل لها الدفاع عن كيانها في مواجهة الدول الأوروبية ، كما لجأت الدول الأوروبية إلى عقد معاهدات مع حكام الجزائر

والتي كان من أشهرها معاهدة التحالف بين فرانسوا الأول وخير الدين  
بربروسا (١٥٢٤) وانضمام السفن الجزائرية إلى السفن الفرنسية في حربها  
ضد شارل الخامس ملك إسبانيا وأميراطور الدولة الرومانية المقدسة .

وبدأت المؤامرات الداخلية تدبر ضد "خير الدين" والعثمانيين فسعى  
سلطان تونس إلى عقد محالفة مع سلطان تلمسان ضد "خير الدين" والوجود  
العثماني في الجزائر ، ولكن هذا التحالف لم يستمر طويلا حيث استطاع  
"خير الدين" هزيمة منافسيه وتوطيد نفوذه في غرب الجزائر . أما في شرق  
الجزائر فقد حاول الحفصيون إثارة المشاكل ضد "خير الدين" ولكنه تمكن من  
تأديبهم وخاض ضدهم العديد من الحروب التي انتهت بانتصاره وتوسيع  
دائرة نفوذه فامتدت حدود الجزائر العثمانية نحو الجنوب حتى واحات  
الميزاب الموعلة في الصحراء ، كما تمكن خير الدين من توجيه الضربات  
للسواحل الإسبانية .

وإلى جانب ذلك فقد اهتم "خير الدين" بإعادة تنظيم إقليم الجزائر فنظم  
موارد الخزينة من ضرائب ومغانم الزكاة والعشر والجزية والخراج وما  
ينفقه رؤساء القبائل والعشائر من العوائد والهدايا والخمس من المغانم  
البحرية ، كما أنشأ مجلسين استشاريين للشورى وأمور الديوان .

وظلت إيالة الجزائر العثمانية تثير قلق الإسبان ، وتهدد مواصلاتهم كما  
ظلت بمثابة الحارس الأمامي للدولة العثمانية في الحوض الغربي للبحر  
المتوسط والقاعدة التي ارتكز عليها العثمانيون لتحرير مدن وبلدان المغرب  
العربي من أيدي الإسبان .

ونتيجة لانتشغال "خير الدين" بقيادة الأسطول العثماني في البحر  
المتوسط تولى نائبه "حسن أغا" إيالة الجزائر وأخذ يتصددى لقوات  
الإمبراطور شارل الخامس التي عملت على إيجاد تحالفات مع بعض  
الكيانات المحلية وعقدت معاهدات تبعية مع ملوك وأمراء بني حفص ، وبني

زيان وبعض مشايخ القبائل ، كما أخذ يتصدى للحمولات العثمانية .  
 أرسلها الإسبان لطرد الأتراك العثمانيين من الجزائر .  
 وقد عمل حسن أغا على دعم قوة الجزائر في مواجهة الإسبان .  
 وأتباعهم ففي الداخل عمل على توطيد الأمن ، وإلى الالتفاف الأهالي حوله .  
 كما عزز نفوذه جنوبا بعد أن نجح في إخضاع القبائل هناك . وإلى جانب ذلك فقد قام بتجهيز أسطول هاجم به السواحل الإسبانية ، وأثار الرعب بين سكانها . ففي جمادى الأولى ٩٤٦ هـ / سبتمبر ١٥٣٩ أفلح بأسطوله المكون من ثلاث عشرة سفينة تقل ألف وثلاثمائة رجل نحو جبل طارق . ونجح في احتلال هذه المنطقة والاستحواذ على ما فيها من غنائم ، كما توغل في جهات الساحل الإسباني الجنوبي وغنم العديد من المتاع والأسرى . كل ذلك دفع الإمبراطور "شارل الخامس" إلى محاولة الاستيلاء على الجزائر ، وفصلها عن الدولة العثمانية بشتى الطرق . فعرض على "خير الدين" حكم شمال أفريقيا تحت السيادة الإسبانية ولكن هذه المحاولة باءت بالفشل خاصة وأن "خير الدين" أبلغ السلطان العثماني بالأمر . ونتيجة لذلك أعد "شارل الخامس" حملة كبيرة تحركت إلى الجزائر ، وتمكنت من الاستيلاء على مينائها والالتفاف حول المدينة لاحتلالها من الخلف ، مما أصاب أهل البلاد بالهلع . وفي أعقاب ذلك أرسل الإمبراطور الإسباني يطلب من "حسن أغا" التسليم ، ولكنه رفض ذلك ، وأعلن أن رجاله سيحاربون إلى آخر رجل . ولم تلبث الأمور أن تغيرت حيث هبت عاصفة هوجاء اجتاحت شواطئ الجزائر ، وصحبها هطول أمطار استمرت عدة أيام فسد خلالها مفعول البارود الذي في حوزة الإسبان ، كما إقتلعت الرياح خيام جنود الحملة ، وارتطمت السفن بعضها ببعض مما أدى إلى غرق كثير منها ، وقذفت الأمواج الصاخبة ببعض السفن الأخرى إلى الشاطئ ، وهجم عليها المدافعون المسلمون ، واستولوا على ذخائرها .

وفي وسط هذه الأحوال نجح "حسن أغا" في مفاجأة العدو ، والانتقام  
حوله مما أدى إلى فشل محاولات الإمبراطور الإسباني في مهاجمة مدينة  
الجزائر خاصة وأن تساقط الأمطار والعواصف الجوية لم تكن في حسبانته .  
وكان الجزائريون قد خرجوا لملاقاة القوات الغازية فأفنوا جزءا كبيرا منها ،  
مما أجبر المهاجمين على الانسحاب وكان له أبلغ الأثر في ارتفاع الروح  
المعنوية لدى المسلمين ، مما دفع السلطان العثماني "سليمان القانوني" إلى  
منح "حسن أغا" وأعوأته العديد من الألقاب والنياشين .

وبعد وفاة "حسن أغا" في رمضان ٩٥٢هـ / نوفمبر ١٥٤٥م تولى حكم  
الجزائر "حسن بن خير الدين بربروما" الذي تمكن من التصدي للكتلات  
الصليبية ، ومنعها من احتلال مدن الساحل في وهران ، والمرسى الكبير ،  
وبجاية . وذلك بفضل مهارته في الأمور الحربية البرية والبحرية ، كما عمل  
على تنظيم إيلاته إداريا وعسكريا ، فقام بالقضاء على تمرد القبائل القاطنة  
في المناطق الغربية من الجزائر ، وتنظيم الجيش ، وتحقيق الانضباط فيه  
ومع ذلك فإن المؤامرات التي حيكت ضد "حسن باشا" لدى السلطان العثماني  
أدت إلى عزله من منصبه وتولية "صالح ريس" حاكما على الجزائر في  
محرم ٩٥٩هـ / يناير ١٥٥٢م . وقد عمل "صالح ريس" على تأمين إيلاته  
الجزائر من الداخل والتصدي للحكومات المحلية المتعاونة مع الإسبان ومن  
أجل ذلك قاد حملات عسكرية لوضع حد لهذه الأمور ، ونتيجة لتركز فكرة  
الجهاد الإسلامي في ذهن "صالح ريس" فقد قام بمحاصرة سواحل الإسبان ،  
وعمل على إيجاد جبهة إسلامية موحدة في المغريين الأوسط والأقصى  
لمحاربتهم ، كما نجح في إنهاء حكم الأسرة الزيانية في تلمسان ، وضم هذه  
المنطقة إلى إيلاته الجزائر العثمانية وفي ربيع الأول ٩٦٣هـ / يناير ١٥٥٥  
شن "صالح ريس" هجوما على المراكز الإسبانية استطاع خلاله انتزاع منطقة  
"بجاية" من الإسبان ، كما أرسل قواته لتحرير وهران ولكن القدر لم يمهله  
فتوفي في رجب ٩٦٤هـ / يوليو ١٥٥٦م . وفي أعقاب ذلك شهدت إيلاته

الجزائر أوضاعا مضطربة ، استغلها السعديون للاستيلاء على تلمسان ولكن جهودهم لم تكفل بالنجاح .

ومن أجل إعادة الأمن والاستقرار في الجزائر عين السلطان العثماني "حسن بن خير الدين" بكرا بيك على الجزائر ، فطارد جيش السعديين المحاصر لتلمسان ، وحاول أن يحرر وهران والمرسى الكبير ولكنه فشل في ذلك .

ونتيجة لتدهور أمور ولاية الجزائر خاصة بعد انتشار الأوبئة والمجاعة وتمرد الجند ، والخلافات القائمة بين البحارة والإنتشارية والثورة التي قامت في قسطنطينية أمر السلطان العثماني بتولية "علج"<sup>(١)</sup> على حاكم على الجزائر فوصلها في رمضان ٩٧٥هـ / مارس ١٥٦٨ . وقد شهدت ولاية الجزائر في عهده استقرارا واضحا ، كما شهدت نشاطا ملحوظا ضد الإسبان ولتوحيد جهود المسلمين في مواجهة الصليبيين رأى "علج على" ضرورة تحقيق وحدة بلاد المغرب العربي تحت الحكم العثماني ومن أجل ذلك إهتم بتوجيه الجهاد العثماني لطرد الإسبان من بلاد المغرب العربي عن طريق وضع مخطط لمساعدة الموريسكيين في ثورتهم

(١) كلمة عربية جمعها "علوج" بضم العين واللام للدلالة على أصل من يحملها بأنه أجنبي فقد كان البحارة الجزائريون من أجناس متعددة ، ولكن الشرط الضروري للاجترار في تلك البحرية الجزائرية هو اعتناق الإسلام ، وكان يفتى على أولئك الذين يغيرون دينهم ويعتقون الإسلام - ومعظمهم من الأسرى - اسم العلوج وكان هؤلاء العلوج يحصلون على أرقى المناصب .

انظر محمد خير فارس : تاريخ الجزائر الحديث من الفتح العثماني إلى الاحتلال الفرنسي ، بيروت ١٩٧٩ ص ٩٣ .



ضد الإسبان والتوجه إلى تونس لتحريرها من أيديهم ثم جمع الجيوش لإخلاء فتح الأندلس وضم المغرب الأقصى إلى الدولة العثمانية وبالنسبة لتونس فقد توجه "علاج على" لفتحها وتمكن من هزيمة القوات الحفصية المؤيدة من قبل الإسبان ، ودخول المدينة في نهاية عام ٩٧٧هـ / ١٥٦٩ حيث رحب به الأهالي وأخذ البيعة للسلطان العثماني "سليم الثاني" وضرب السكة باسمه . وبالنسبة للفترة من ١٥٨٨-١٦٥٩ فقد تميزت بالصراع بين قوى ثلاثة هي الباشا ممثل السلطان ، والإنكشارية، وأمراء البحر وقد ساند الإنكشارية أمراء البحر من أجل الحصول على الغنائم مما أضعف من سلطة الباشا . وفي عام ١٦٥٩ تم خلع الباشا العثماني، وانتخاب الداي<sup>(١)</sup> رئيس الديوان حاكما على الجزائر مما أدى إلى تحكم قادة الجند في الدايات ، وقد استاء الأهالي من هذه الفوضى ، وساندوا أمراء البحر الذين فرضوا أحد رجالهم على الأوجاق في عام ١٦٧١ ووضعوا حدا لسيطرة الإنكشارية . ومنذ علم ١٧١١ اغتصب داي الجزائر صلاحيات الباشا العثماني . وظل الدايات ينتخبون من بين أمراء البحر وبمرور الوقت أصبح الداي يحكم دون مشورة الديوان ، وأصبح حاكما مستقلا لا سلطان للدولة العثمانية عليه سوى السيادة الاسمية .

وخلال ذلك أصبحت السلطة الحقيقية في أيدي رؤساء القوات غير النظامية ، ولم يصبح للسلطان العثماني سوى السيادة الاسمية فقط وأصبح الحاكم الملقب بالداي هو المتقلد الرسمي لأمر الحكم ونتيجة للسلطات

---

(١) الداي كلمة تركية تعني (خال) ولكنها فيما يبدو تم تستخدم للدلالة على عمل وظيفي إلا في الجزائر وتونس ، وكانت في بادئ الأمر لقباً شرفياً ثم تحول لوظيفة عسكرية في الجيش الإنكشاري .

الواسعة التي أعطيت للدايات تحولت الجزائر تدريجيا إلى دولة شبه مستقلة فقد كان من حق الدايات عقد المعاهدات مع الدول الأجنبية دون الرجوع إلى السلطان العثماني ولم تكن إيرادات البلاد يرسل منها شيء إلى الأستانة بل كانت تصرف معظمها داخل الجزائر وخلال القرن الثامن عشر شهدت الجزائر انهيارا اقتصاديا بسبب كساد الحركة التجارية نتيجة لحصار بعض الدول الأوروبية للشواطئ الجزائرية ، كما شهدت فوضى سياسية بسبب النزاع بين الدايات وبعض رجال الجيش من جهة ، وقراصنة البحر من جهة أخرى مما أدى إلى اضطراب الأمن ، وفقدان الدايات للسيطرة على أمور بلادهم .

ونتيجة لضغوط قباطنة البحر الجزائريين على السفن الأوروبية التي تمر بشواطئ بلادهم وفرضهم الأتاوات المستمرة عليهم ضاقت بعض هذه الدول من ذلك الوضع فأرسلت إسبانيا حملة في عام ١٧٧٥ للاستيلاء على شغل للجزائر التي كانت تعدده مكنم الخطر على سفنها في البحر المتوسط ، ولكن هذه الحملة فشلت في الاستيلاء على الشغل الجزائري رغم النيران الحامية التي صيبتها عليه . ومع ذلك لم تتوقف المحاولة فقد حاول الإسبان تكوين حلف أوروبي ضد الجزائر ، ولكن محاولتهم فشلت مما جعل الدول الأوروبية تتنافس فيما بينها لكسب ود حكام الجزائر وعقد امتيازات سياسية وتجارية معهم وإلى جانب ذلك فقد حاولت الولايات المتحدة إقامة تحالف أمريكي أوروبي ضد الجزائر ، ولكنها فشلت مما أدى إلى رغبتها في شراء السلام بالمال .

ولنا هنا أن نتساءل هل الجهاد البحري الإسلامي ، وفرض الأتاوات على السفن الأوروبية التي تخالف المسلمين في عقيدتهم الدينية تسمى قرصنة . الواقع أن تاريخ الجزائر الحضاري تعرض لكثير من التشويه فالمؤرخون الأوروبيون يصرون على اعتبار البحارة المسلمين الذين جاهدوا لوقف الهجمات الصليبية على بلادهم أمثال "عروج" وأخيه "خير الدين

بربروسا و"صالح ريس" على أنهم قرصنة مع أن هؤلاء كان مثلاً أعلى في البطولة والفدائية فقد جسد "عروج" و"خير الدين" في نظر الجزائريين روح المواجهة والاستبسال في المعارك التي خاضوها دفاعاً عن إسلام وعروبته شمالي أفريقيا ، واستطاعوا جمع صفوف سائر مسلمي هذه البلاد لمواجهة أعداء الإسلام ومن المؤسف حقاً أن نرى بعض المؤرخين والباحثين المسلمين قد سايروا المؤرخين الأوروبيين في هذا الرأي الخاطئ ، ووصفوا عمليات "الجهاد الديني البحري" التي قام بها هؤلاء البحارة ضد السفن المسيحية التي دأبت على التعرض للسفن الإسلامية بأنها عمليات قرصنة رغم خطئها إذ يجب أن نطلق عليها عملية الجهاد البحري الإسلامي ، فليس من المنطقي أن نعتبر الرجال الذين يخرجون على سفنهم المسلحة للدفاع عن السواحل الإسلامية في شمالي أفريقيا والعمل على حماية الممتلكات والأرواح الإسلامية بأنهم قطاع طرق وقرصنة ولاهم لهم سوى السلب والنهب وخنق التجارة الدولية ، وعرقلة قيام علاقات سلمية بين الشعوب ومن الغريب حقاً أن نجد أفكاراً خاطئة حول هذه الموضوع لا تزال رائجة يرددنها متخصصون أكاديميون . الواقع أن هجوم السفن الإسلامية ضد السفن البحرية الصليبية كان جهاداً بحرياً إسلامياً خاصة وأنه كانت هناك حروب مستمرة مع هذه الدول .

وقد استند المسلمون إلى مبدأ الجهاد الإسلامي في محاربة أعداء الإسلام سواء على الأرض أو في البحر . لذلك فإن ما قام به رجال البحر الجزائريون ضد سفن إسبانيا والبرتغال وفرنسا القديس يوحنا كان جهاداً بحرياً إسلامياً جاءت بدايته رداً على اعتداءات تلك القوى الصليبية على المسلمين في إسبانيا وفي شواطئ بلاد المغرب . كما أن ما قاموا به يمكن إعتباره من قبيل الدفاع عن النفس ضد أطماع القوى الصليبية ، يضاف إلى ذلك أنه من المعروف أن القرصنة - إذا صح ذلك التعبير - لم تكن مقصوده على مسلمي شمال أفريقيا ، ولكنها كانت سلاحاً استخدمه المسلمون وغير

المسلمين ، فكما كانت السفن الإسلامية تعتدى على سفن الدول الأوروبية ، فإنها كانت سلاحا استخدمه الأوروبيون ضد بعضهم البعض وضد المسلمين أيضا فقد استخدمه الإنجليز ضد سفن خصومهم الإسبان ، وباركنه الحكومة الإنجليزية ، كما شهده البرتغاليون ضد السفن الإسلامية بعد موقعة ديو البحرية . وعلى أى حال فقد استطاع قباطنة البحر المسلمون الدفاع عن الشمال الإفریقی ضد العدوان الإسباني المتحالف مع فرمان القديس يوحنا حتى لاح لهم أن من الخير أن ينضموا تحت لواء الدولة العثمانية ففعلوا وتحول الجهاد الإسلامي في منطقة المغرب العربي من جهاد فردى ، إلى جهاد دولة تمتلك من الأساطيل ما تستطيع به ردع أى عدوان صليبي ضد أى دولة إسلامية . وظلت الروح الصليبية تؤثر في العلاقات بين ولايات المغرب العربي والدول الأوروبية ، حتى بدأت المشروعات التسي وضعت للتدخل في شئون هذه الولايات تبدو للعيان ، فنتيجة لتردى العلاقات بين فرنسا والجزائر في عهد إميراضورية نابليون راودت بونابرت في عام ١٨٠٨م فكرة الاستيلاء على الجزائر فكلف أحد ضباطه بوضع خطة عسكرية لمشروع حملة فرنسية على الجزائر وقد قام هذا الضابط بكتابة تقرير للسلطات الفرنسية أوضح فيه إمكانية الاستيلاء على الجزائر ، وأشار إلى الأماكن التي تصلح لإزال الجنود الفرنسيين ، والطرق والآبار التي يمكن أن يستخدمها رجالات الحملة .

وعلى الرغم من أن هذا التقرير قد حفز نابليون على الاستيلاء على الجزائر فإن الظروف الدولية في ذلك الوقت لم تسمح له بتحقيق هذه الأطماع التي بدأت تثبت في أذهان ساسة فرنسا الذين كانوا يتحينون الفرص المناسبة لذلك .

وقد انتهزت فرنسا فرصة فقدان الدولة العثمانية لأسطولها في معركة "توارين البحرية" ١٨٢٧م ، فحاولت اقتطاع الجزائر من أملاك العثمانيين

خاصة وأنها كانت ترغب في الحصول على الموارد الأولية اللازمة لصناعاتها ، وإيجاد الأسواق اللازمة لتصريف منتجاتها وتوظيف رءوس أموالها .

- وقد استغلت فرنسا فرصة المصادفة الكلامية التي حدثت بين داي الجزائر وقنصلها هناك نتيجة لمماطلتها في دفع المستحقات التي عليها للجزائر نظير الحبوب التي استوردتها منها ، فأرسلت في يونيو ١٨٢٧ أربع سفن حربية إلى الشواطئ الجزائرية ، ووجهت إنذارا إلى الداي كانت أهم بنوده الترضية الكاملة عما لحق بفرنسا من إهانة ، وتقديم كافة الضمانات التي تحول دون تعرض السفن الفرنسية لأي إجراءات تفتيشية من السفن الجزائرية ، وأن تتمتع فرنسا في الجزائر بحق الدولة الأكثر رعاية ، وأن يعلن الداي أن حكومة فرنسا قد أوفت بالتزاماتها المالية تجاه الجزائر وأنه ليس له أي حق قبلها . وقد هددت فرنسا بإعلان الحرب على الجزائر في حالة رفضها لشروط الإنذار ، ومع ذلك فقد رفض الداي الإنذار الفرنسي ، وأصر على التمسك بموقفه ، وأخذ يتحكم على المطالب الفرنسية بقوله "سم يبق إلا أن يطلبوا إمرأتي" .

- ونظرا لأن قيام فرنسا بعملية حربية ضد الجزائر أصبحت شبه مؤكدة أبلغت فرنسا الدولة العثمانية بأن والي الجزائر الذي أظهر عداوة واضحة للفرنسيين بتحقيقه لفتنصل فرنسا ، ورفضه تقديم الترضية العلنية قد جعل الحرب محققة بين فرنسا والجزائر . ولما كانت الدولة العثمانية منشغلة في مشاكلها في جزيرة المورة ، ولا تنوى إضافة أعباء أخرى تضاف إلى همومها فقد تباطأت في حسم الموقف بالطريقة المناسبة مما أعطى لفرنسا فرصة الانفراد بالأمر ، وخلال هذه الفترة بدأت فرنسا في البحث عن حلول أخرى تجنبها نفقات الحرب ، وفي نفس الوقت تجعل المسلمين يقتلون بعضهم بعضا فاقترح "دورفتي Drovetti" قنصل فرنسا في الإسكندرية قيسام

محمد علي والي مصر بحملة على الجزائر بمساندة فرنسا لتأديب الداي والقضاء على حكومته ، واحتلال الجزائر وضمها إلى أملاكه علي أن يكون لحليفته فرنسا امتيازات واسعة في هذه البلاد .

ولما قوتح محمد علي في الأمر تردد في البداية خشية فقدان ثقة العالم الإسلامي فيه وقال للتوصل الفرنسي "أنتم مسيحيون أما نحن والجزائريون فمسلمون، وسماع أقوال كذلك ونحن ذوو دين ، وأمة وشريعة ودولة واحدة ، لا يتلاءم مع ديننا ودولتنا" ولكن سرعان ما عدل محمد علي عن رأيه ووافق على فكرة القيام بحملة لتأديب الداي بشرط أن تدفع له فرنسا مبلغا ماليا ، ودعما بحريا يمكنه من إعادة بناء أسطول له الذي تحطم في موقعة نفارين البحرية عام ١٨٢٧م .

وفي محاولة من محمد علي لتكشف الموقف أرسل إلى الداي برسالة ينصحه فيها ويحذره من العواقب الوخيمة إذا أصر على موقفه المعادي لفرنسا ، وكان رد الداي عليه فليذهب محمد علي ليأكل الفول .

وحتى يأخذ مشروع محمد علي بالحملة على الجزائر شكلا رسميا لا تعترض بريطانيا أو غيرها عليه رأت فرنسا ضرورة أخذ موافقة السلطان العثماني على المشروع وعندما تسرب الخبر إلى الإنجليز اعترضوا عليه وحرضوا السلطان العثماني ضده ، كما حذرت بريطانيا محمد علي الذي بدأ يرتبط بالمصالح الفرنسية من الإقدام على هذا العمل وإلى جانب ذلك فقد ثارت الدول الأوروبية ضد هذا المشروع كما عارضت الدولة العثمانية إمتداد نفوذ محمد علي إلى شمالي أفريقيا وإزاء هذه العقبات أضضت فرنسا أعينها عن هذا المشروع ، وظلت تنتحين الفرص المواتية للقيام بنفسها بحملة عسكرية ضد الجزائر والانتفراد باحتلالها وقد جاء الوقت المناسب لذلك عندما انشغلت بريطانيا بالانقلاب النابلي الذي حدث فيها خلال ذلك الوقت وانشغلت روسيا وبروسيا والنمسا بالثورات التي اندلعت في إيطاليا وبولندا .

في تلك الفترة فتترعت فرنسا أمام الرأي العام الأوربي أنها تدافع عن قضية أوربية تدعم من خلالها قواعد العدل وأصنتر ملكها قرارا في ٧ فبراير ١٨٣٠ بإعلان التعبئة العامة ثم صدرت الأوامر بعد ذلك بغزو الجزائر فاجبر الأسطول الفرنسي من ميناء طولون في شهر مايو من نفس العام وهو يحمل ٢٠ ألفا من رجال البحرية وقام الجيش الفرنسي المكون من ٣٧٦٠٠ مقاتل ، ٩١ قطعة مدفعية بغزو الجزائر ، وبدأ بإنزال في سيدى فرج على بعد ٢٥ كيلو مترا غربي مدينة الجزائر ونتيجة لذلك عهد الداي إلى صهره إبراهيم أغا بقيادة القوات المدافعة . وقد دافع الجزائريون عن بلادهم دفاعا مجيدا استطاعوا خلاله حصر الزحف الفرنسي في شريط ساحلي لا يشمل كل الشواطئ الجزائرية ، ومرت ثلاث سنوات دون أن يستطيع الفرنسيون من فرض سيطرتهم على أكثر من بضع موانئ ساحلية بينما أصبح داخل البلاد في أيدي الزعماء ورؤساء القبائل .

وخلال الفترة من ١٨٣٠ إلى ١٨٣٩ قامت سياسة فرنسا في الجزائر على فكرة الاحتلال المحدود المقتصر على الساحل دون الداخل ثم تحولت هذه السياسة إلى التوغل في الداخل ، فنجح الفرنسيون في احتلال سيدى فرج والوصول إلى مدينة الجزائر ، ومهاجمة قلعة السلطان ، وحصن القصبة ، وإشعال النار في مخازن الذخيرة ولما رأى الداي تحول الموقف فى غير صالحه حاول الحصول على صلح مشرف مع الفرنسيين ، ووسط في ذلك فنصل بريطانيا ولكن الفرنسيين رفضوا هذه الوساطة وأصرروا على فرض شروطهم والتي كان من أهمها ما يلي :

١- تسليم حصن القصبة ، وجميع حصون مدينة الجزائر وأبوابها

للفرنسيين .

٢- ضمان القائد الفرنسي حماية الداي ، وممتلكاته الشخصية .

٣- ترك الحرية للداى فى الإقامة أو الرحيل إلى أى مكان يريده .

٤- عدم اتخاذ أى إجراءات إنتقامية ضد الجنود الجزائريين . .

٥- كفالة حرية الجزائريين فى إقامة شعائهم ، وصيانة ممتلكاتهم

وتجارتهم وصناعاتهم ، والمحافظة على أعراسهم .

وقد وافق الداى على هذه الشروط التى تضمنت متطلباته وقرر مغادرة مدينة الجزائر هو وأسرته إلى نابلى بإيطاليا ، ونتيجة لذلك انتهت آخر مظاهر التبعية للعثمانيين فى الجزائر ووقعت أعياء المقاومة على الشعب الجزائرى نفسه ، وبدأ الاستعمار الفرنسى الرسمى فى الجزائر ، وقد حاولت الدولة العثمانية استرداد الجزائر بالطرق الدبلوماسية ، وبذلت مساع عديدة لدى إنجلترا والنمسا من أجل استرجاع سيادتها على هذا الإقليم ولكنهما كانتا مشغولتين بالأوضاع الأوربية فى ذلك الوقت .

ومما سبق يتضح أن أهم العوامل التى ساعدت فرنسا على احتلال الجزائر هو تغير الموقف الدولى لصالحها ، هذا بالإضافة إلى دخول الدولة العثمانية فى دور الاضمحلال وعدم قدرتها على الصمود بنجاح أمام الهجوم الاستعمارى ، وعدم معرفة داى الجزائر بعواقب الأمور ، وبقدرة فرنسا العسكرية التى برزت مع النهضة الأوربية والتطور الصناعى فى أوربا . هذا عن تاريخ الجزائر منذ تبعتها للدولة العثمانية حتى الاحتلال الفرنسى لها أما عن نظام الحكم العثمانى للجزائر ، ومظاهر الحياة الاقتصادية والاجتماعية فيمكن حصرها فيما يلى :

#### ١- نظام الحكم العثمانى فى الجزائر

لم يكن للدولة العثمانية خطة واحدة لإدارة حكم الجزائر بل تأثرت سياستها بصفة عامة بالأوضاع الداخلية التى كانت سائدة ، ويتطور الأحداث فى هذه البلاد فبعد أن دخلت الجزائر فى حوزة العثمانيين بمبادرة من خير



الدين اعتبرت ولاية ممتازة ، وقاعدة لتوسيع الحكم العثماني في كافة بلدان المغرب العربي .

وقد شهدت الجزائر عدة تغيرات خلال الحكم العثماني لها يمكن تقسيمها إلى أربع فترات وهي :

١- الفترة الأولى من ١٥١٨ - ١٥٨٨م وهي فترة حكم البيكرك بكوات وفيها كان الوالي بمثابة ممثل السلطان أو نائبه ، وكانت الجزائر تعد أقوى نيابات المغرب وكان البيكاريك يعين من قبل السلطان ، وهو بدوره يشرف على الباشوات الحاكمين في إقليم طرابلس وتونس .

وبعد أن ألغت الدولة نظام البيكاريك أصبحت الجزائر ولاية عادية ، وأصبحت كل ولاية قائمة بنفسها يتولاها الباشوات الذين تعيّنهم حكومة الباب العالي .

٢- الفترة الثانية ١٥٨٨ - ١٦٥٩م وفيها فقد الباشوات سيطرتهم الفعلية على الإنكشارية وانتقلت السلطة إلى الأوجاقات .

٣- الفترة الثالثة ١٦٥٩ - ١٦٧١م وفيها استأثرت الإنكشارية بالسلطة وعمت الفوضى وانتهى الأمر بتولي رجال البحر زمام الأمور وتسم تولية «دهم تحت لقب داي» .

٤- الفترة الرابعة ١٦٧١ - ١٨٣٠م وفيها استمر لقب الداي موجودا وإن أصبح دليات الجزائر يحملون لقب "الباشا" وإلى جانب ذلك فقد عاون حكام الجزائر في إدارة شئون البلاد مجلس استشاري ، هذا بالإضافة إلى الديوان الذي كان يتألف من نائب الحاكم الأعلى ويطلق عليه الكاهية . وقد تركزت مهمة الديوان في مساندة الحاكم في إدارة البلاد .

وبالنسبة للقوات العسكرية فقد كان يطلق عليها الحامية العثمانية وليس جنود الاحتلال وكان نواتها الجنود الإنكشارية الذين أرسلهم السلطان إلى

خير الدين" أثناء فتح الجزائر والمتطوعون الذين يتم إرسالهم عن طريق الدولة العثمانية والذي لم يقتصر دورهم في الدفاع عن البلاد والمحافظة على الأمن ، بل أخذ معظمهم يتدخل في إدارة شئون البلاد وفي حياة السكان بصورة واضحة مما أدى إلى إضعاف الحكومة والجيش معا وكان مقتل تركي واحد دافعا لحادث مجزرة بين الأهالي إذا لم يقبض على القاتل .

ونتيجة لاستقرار هؤلاء الجند في الجزائر فقد بدأوا يستزوجون من الأهالي الذين كانوا يرحبون بذلك رغبة في الحماية الفعالة منهم ، كما عمل بعضهم بالتجارة وريحوا ثروات طائلة .

ومن الفرق العسكرية الشهيرة في الجزائر القولو على وهم المولدون من زواج الإنكشارية بنساء من الأهالي . وقد استخدم بعضهم في الوظائف المساعدة ، وفي أن يكونوا واسطة بين الحكومة والأهالي نظرا لمعرفتهم اللغة التركية ، وقد تميز هؤلاء يتولى العديد من السلطات وإلى جانب هؤلاء فقد كان هناك طائفة الرؤساء وهم رجال البحر الذين كانوا طليعة التدخل العثماني في الجزائر ولعبوا دورا بارزا في خلق النيابات العثمانية في شمال أفريقيا كما تركز نشاطهم ضد السفن الأوربية وغنموا منها الكثير من الغنائم والأسرى . وكانت هذه العمليات تحمل طابع الحروب الدينية بين المسلمين والمسيحيين . وبالإضافة إلى ذلك فقد كلف هؤلاء بحماية القطاع الغربي من البحر المتوسط ضد إسبانيا عدو الإسلام التقليدي في ذلك الوقت وقد نجح هؤلاء في مهمتهم إلى حد كبير نظرا لمهارتهم في قيادة السفن ، وانضباطهم ومعرفتهم لشواطئ بلادهم الأصلية مما جعل لهم مكانة كبيرة في الجزائر خاصة وأن المغنم التي كانوا يحصلون عليها كانت أهم موارد البلاد .

وحول النظام الضريبي في الجزائر وغيرها من الولايات الغربية فقد كان محددا من قبل الدولة العثمانية ، وكان فرض الضرائب يتم بطريقة تعسفية ترهق السكان وتثير ردود فعل عنيفة ، ففي كل عام تخرج مفرزة

عسكرية تبدأ عملها ما بين شهري مايو وأكتوبر وتتجول في القرى والمناطق القبلية بهدف جمع الضرائب المقررة عليها ، وكانت عملية انتقال هذه المفوزة من منطقة إلى أخرى ، وعملية إطعام مابها من جنود وموظفين بتحملها الأهالي . وليس معنى ذلك أن كل القبائل كانت تسدد ما عليها من ضرائب فكانت هناك قبائل لا تدفع الضرائب نظرا لصعوبة فرض سلطة الحكومة عليها .

وكانت الضرائب على نوعين : ضرائب شرعية مثل الزكاة والعشور على المحاصيل وتحدد بحسب الأقدنة المزروعة وضرائب أخرى متعددة مثل العوايد وهي بمثابة هدايا إيجازية تقدم في المناسبات كالأعياد ، وهناك ضريبة "اللزمة" وكانت تؤخذ لتمويل الجند في الأرياف ، وهناك ضرائب المكوس على الأسواق . وإلى جانب ذلك فكان سكان المدن يدفعون ضرائب على المهن التي يعملون بها

وكان تقدير الضرائب يجرى بطريقة عشوائية بهدف تأمين حاجات الإدارات الحكومية . فقد كان نظام الالتزام بؤرة لكثير من المفاقد والعيوب والنهب والتي تقع جميعها على عاتق الأهالي حيث كان الفلاح يدفع مثلي أو ثلاثة أمثال الضريبة المقررة عليه . وكان الامتناع عن الدفع يعد عصيانا كبيرا .

وإلى جانب ذلك فقد كانت خزينة البلاد تعتمد على موارد أخرى فقد كان لها حصة من الأتاوات التي يفرضها البحارة على الدول الأوربية مقابل حرية مرور سفنهم ، كما كانت الهدايا التي يقدمها القناصل للدائيات أشبه بجزية سنوية .

وفي محاولة لضبط الأمور عملت الحكومة العثمانية على الاستعانة ببعض القوى المحلية لفرض سيطرتها على الولاية ، فاخترت بعض القبائل وسموها بالمخزن ، وكلفوها بالمساعدة في القيام بأعمال الشرطة وتكذيب

القبائل العاصية التي ترفض دفع الضرائب وذلك في نظير بعض الامتيازات التي تمنحها لها .

كما أنشأت الحكومة ما يسمى 'بالسمول' (جمع سمالا) وهي جماعات صغيرة من الأهالي منحتها بعض الأراضي للإقامة فيها نظير قيامها بحماية الجنود والمسافرين ، والمحافظة على الأمن في المناطق المحيطة بها والمحافظة على بعض النقاط الهامة .

وبعد أن اتسع نطاق إيالة الجزائر تم تقسيمها إلى عدة ولايات وهي :

- ولاية الجزائر وكانت تسمى دار السلطان ، وتشمل مدينة الجزائر وضواحيها وترتبط بالداي مباشرة .
- ولاية الجنوب وكان يحكمها باي وعاصمتها الميمنية وكانت أصغر الولايات .
- ولاية الغرب وكان يحكمها باي وعاصمتها مازونة ثم نقلت بعد ذلك إلى مدينة معسكر ثم إلى وهران .
- ولاية الشرق وكان يحكمها باي وعاصمتها قسطنطينة وتمتد حتى حدود تونس .

واستمرت الأمور على هذا المنوال حتى عام ٩٩٥هـ - ١٥٨٧م وبعدما أرسلت الدولة العثمانية إلى الجزائر ولاة يحملون لقب باشا كان الواحد منهم يعين لمدة ثلاث سنوات ، ثم تغير ذلك النظام في عام ١٠٦٩هـ / ١٦٥٩م بما أطلق عليه مرحلة الأغوات وأعقبه مرحلة الدلايات في عام ١٦٧١م الذي استمر حتى وقعت الجزائر في قبضة الاحتلال الفرنسي عام ١٨٣٠م .

وبالنسبة للنظام القضائي فقد كان جزءاً من التنظيم القضائي للدولة العثمانية الذي يبدأ بشيخ الإسلام ، واثنين من قضاة العسكر . وقد عين قاضيان بالجزائر أحدهما للمذهب الحنفي والمذهب الرسمي للدولة العثمانية ،

والآخر للمذهب المالكي الذي كان يسيطر عليه معظم سكان شمال أفريقيا .  
كما وجد المجلس الشرعي الأعلى الذي يتألف من قاضيين ومفتيين على  
المذهبين المذكورين . وأحد المشايخ للنظر في شئون الأوقاف وممثل  
للحكومة ، وكانت مهمة هذا المجلس تتحدد في مراجعة أحكام القضاء ،  
والنظر في المنازعات الكبرى وكان مقره بالجامع الكبير بالجزائر العاصمة ،  
ويحضر الحاكم اجتماعاته غالبا .

## ٢- أحوال الجزائر الاقتصادية خلال الحكم العثماني

وبالنسبة للنواحي الاقتصادية فلم يكن للدولة العثمانية أثر ملموس في  
ذلك فلم تتدخل في تحسين وسائل الزراعة البدائية أو في العمل على الوقاية  
من الكوارث الطبيعية والأوبئة أو الاهتمام بالمجاري المائية بل تركت الأمور  
على حالها ، وإلى جانب ذلك فقد كان لارتفاع ضريبة الضرائب على الفلاحين  
أكبر الأثر في عدم استغلال الأراضي الصالحة للزراعة ويقال نفس الشيء  
عن التجارة . حقيقة كان هناك ازدهار محدود في هذا القطاع الذي تمثلت  
أنشطته في المبادلات التجارية المحلية بالأسواق ، وفي التبادل التجاري مع  
المدن الحدودية في تونس والمغرب ، ولكن التبادل التجاري الخارجي كان  
مخيما عليه حركة الكساد نظرا لوقوف الدول الأوروبية في وجه حركة  
التجارة الجزائرية بالمرصاد ، هذا إلى جانب عدم اهتمام الدولة بإنشاء  
الموانئ الصالحة للتجارة ، وبالنسبة للنظام النقدي في الجزائر فقد أصدرت  
الجزائر سكنتها باسم السلاطين العثمانيين إشارة إلى التبعية والولاء . فقد سك  
في الجزائر أنواع مختلفة من النقود الذهبية والفضية والنحاسية وإلى جانب  
النقود العثمانية فقد اتبع نظام الأوزان والأطوال والمقاييس والمكاييل العثمانية  
مثل القنطار والأفة ، والأوقية ، والدرهم ، والمقال الذهبي والذراع القياسي  
وغيره .

وبالنسبة للصناعة فقد وجد بالجزائر صناعات مختلفة منها صناعة النسيج ، ودباغة الجلود ، وصناعة السجاد ، وصناعة الأحذية ، وصياغة الذهب ، والصناعات الخزفية .

### ٣- الحياة الثقافية في الجزائر خلال الحكم العثماني :

أما عن الحياة الثقافية في الجزائر خلال الحكم العثماني فقد طبعت بالطابع الإسلامي فقد ارتبط التعليم والقضاء والعلاقات الاجتماعية والفكرية بالنظام الإسلامي فكان التعليم منتشرا في أوساط القرى والريف عن طريق المساجد والزوايا التي كانت تمول من الأوقاف التي يهبها أهل الخير والصالح إلى جانب ذلك فقد كان هناك ما يسمى "الشرعية" وهي الخيمة التي تنصب في القرية لتعليم أطفالها ، وكان هناك أيضا للكتاب أو ما يسمى الـ (مسيد) وهي تحريف لكلمة مسجد وكان يقد عليه الأطفال من ذكور وإناث وتركز التعليم على القرآن الكريم ، والحديث والعلوم العربية والإسلامية . وإلى جانب ذلك فقد بنى الأتراك بعض المدارس ومع كل ذلك فإنه يمكن القول أن الجزائر عانت مثل بقية بلاد المسلمين من تأخر علمي ، وعدم القدرة على الإبداع حيث انحصر الجهد العلمي في الحفظ ، وكتابة الشروحات والحواشي والتعليقات دون أن تظهر ملكة الإبداع ، كما أهملت العلوم العقلية مثل الكيمياء والطب والفيزياء وغيرها .

ومما سبق يتضح أن الوجود العثماني في الجزائر لم يكن في يوم من الأيام وجودا إستعماريًا بل هو وجود اقترنت بدايته بظروف دولية اقتضت ضرورة استجداد الجزائر بالعثمانيين في بداية القرن السادس عشر لاتقاء خطر الهجمة الصليبية على بلادهم . كما يتضح روح المواجهة والاستبسال التي تجسدت في عروج وأخيه خير الدين خلال الوقوف أمام عنف الهجمة الصليبية على منطقة المغرب ، وعجز واهتراء الكيانات السياسية المحلية التي كانت موجوده والتي لم تنبر للتصدي لهذا الخطر وإنما حاول بعضها

التواطؤ معه خدمة لأغراضها الذاتية وتفضيلها مصالحها الشخصية على المصلحة العامة .

والى جانب ذلك فقد أدت البحرية الجزائرية دورا هاما فى الدفاع عن الجزائر ، وقامت بمهمتها تاريخيا على أكمل وجه ، وفى أروع صور التضحية والفداء ليس من أجل الجزائر فحسب وإنما كذلك من أجل الدفاع عن الإسلام ، والوقوف فى وجه التسلط والسيطرة الأوربية .

وعندما اختلت موازين القوى ، وتخلف الجزائر عن الركب وعجز عن المشاركة فى السياق انعكس ذلك سلبيا على قوتها العسكرية المتمثلة فى البحرية مما أدى فى النهاية إلى عدم القدرة على المحافظة على أمن البلاد ، وانتهى الأمر بالأزمة التى اندلعت بين الجزائر وفرنسا فى عام ١٨٢٧ والتى انتهت بالاحتلال الفرنسى للجزائر عام ١٨٣٠ .

## الفصل الثاني

### ليبيا (طرابلس الغرب) خلال الحكم العثماني

بعد أن وقعت طرابلس الغرب<sup>(١)</sup> في يد الإمبراطور الإسباني شارل الخامس\* في عام ١٥١٠ ترك إدارتها لفرسان القديس يوحنا ، الذين كانوا يتخذون من مالطة مقرا لهم .

وقد أحل فرسان القديس يوحنا بهذه المدينة الدمار ، واتبعوا مع أهلها سياسة التعصب الديني حيث أقاموا حكومة مسيحية دينية استهدفت تغيير الوجه الإسلامي لهذا الإقليم العربي الإسلامي ، كما أنهم جعلوا من ميناء طرابلس جيبا صليبيا ينطلقون منه لضرب السفن الإسلامية التي تجوب البحر المتوسط ، وقاعدة يشتون منها غاراتهم ضد الأقطار الإسلامية المطلة على البحر المتوسط ، ولكنهم اصطدموا بالشعور الديني الإسلامي المتأجج في نفوس الأهالي . فقد عمد أهالي طرابلس إلى مقاومة هذه الهجمة الشرسة ضد الإسلام مستعينين في ذلك بالمجاهدين المسلمين الذين كانت سفنهم تجوب البحر المتوسط أمثال عروج وخير الدين ، ولكن إمكاناتهم الحربية وجهودهم البشرية حالت دون ذلك خاصة بعد أن قام فرسان القديس يوحنا بتحصين المدينة ، وتدعيم قلعتها ، هذا بالإضافة إلى تحالف "الحسن القصي" حاكم تونس معهم ومساندتهم ، مما دفعهم إلى الاستجداد

(١) سميت طرابلس الغرب للفرقة بينها وبين مدينة طرابلس الشام ، وقد اقتصر استيلاء الإسبان وفرسان القديس يوحنا على طرابلس وما جاورها ولم يتوغلوا في باقي أنحاء ليبيا، وترجع أهمية مدينة طرابلس لموقعها على طريق الحج من الغرب إلى مكة المكرمة، ثم من إتصالها بالطرق التجارية بين أفريقيا وأوروبا .



بالسلطنة العثمانية كما فعلت الجزائر من قبل . فأرسلوا وهذا إلى السلطان العثماني "مليمان القانوني" يلتمسون منه المساعدة لتخليص بلادهم من الحكم الصليبي ، ويعلمون ولاءهم له ، والانضواء تحت السيادة العثمانية . وقد وافق السلطان على طلبهم حيث رأى أن الاستيلاء على طرابلس الغرب يمثل إكمال حلقة النفوذ العثماني على أقطار المغرب العربي ، كما أن فيه إنقاذ لأهل هذه البلاد المسلمين من السيطرة الصليبية ، ومن حركة التنصير التي كان يرغب الإسبان هيبتها بهم .

ونتيجة لذلك أرسل السلطان حملة إلى طرابلس الغرب بقيادة "مستان باشا" قائد الأسطول التركي في ١٣ شعبان ٩٥٨هـ - ١٦ أغسطس ١٥٥١م لفتحها وطرد فرسان القديس يوحنا منها . وقد تكونت هذه الحملة من مائة وعشرين سفينة يساندها خمسون أخرى وستة آلاف جندي ، وأربعين مدفعا . وقد قام "مستان باشا" بمحاصرة المدينة وقصف قلعتها حتى اضطرت إلى الاستسلام ، وفتح أبوابها للأتراك ، وإجبار فرسان القديس يوحنا على مغادرتها واللجوء إلى مالطة .

ومنذ ذلك الوقت أصبحت طرابلس ولاية عثمانية ، وقاعدة للأسطول العثماني في البحر المتوسط ، ومرسى للعثمانيين يربط البحر المتوسط بطرق القوافل المتجهة إلى الصحراء ، وإلى أفريقيا السوداء جنوبا بالإضافة إلى جعلها ملجأ للسفن القادمة من الغرب ، والمحملة بالحجاج وهم في طريقهم إلى الأماكن المقدسة .

ويقسم المؤرخون الحكم العثماني في ليبيا إلى ثلاثة أقسام هي :

١-العصر العثماني الأول والذي استمر فيه الحكم العثماني المباشر لهذه البلاد . وهذه الفترة تنحصر ما بين عامي ١٥٥١/١٧١١م .

٢-حكم الأسرة القره مانلية ١٧١١-١٨٣٥م .

### ٣-العصر العثماني الثاني ١٨٣٥-١٩١١م .

وفيما يلي نعرض لذلك :

#### أولا : العصر العثماني الأول :

بعد فتح العثمانيين لطرابلس ، قام "منان باشا" بتنظيم شئونها ، فوضع على قلعتها حامية كبيرة من الإنكشارية وقام بإصلاح شئون إدارتها ، ثم اتجه بعد ذلك إلى استئبول حيث صدر فرمان سلطاني بتعيين "مراد أغا" فكان بذلك أول الولاة العثمانيين هناك .

وقد واجه "مراد أغا" في مستهل عهده مشاكل عديدة كان أبرزها العمل على إعادة تعمير المدينة ، وترميم القلعة ، وتنشيط الحياة العامة في البلاد ، بعد ما تعرضت له من أضرار فادحة خلال العهد الإسباني وعهد فرسان القديس يوحنا .

وقد عمل "مراد أغا" على إعادة الاستقرار إلى طرابلس ، فدعا سكانها الذين هجروها خلال حكم فرسان القديس يوحنا للعودة إليها ، وشجعهم على العمل في استثمار الأرض الزراعية ، وإنشاء البساتين كما شجعهم على العمل في الصناعة مما أدى إلى عودة الحياة إلى مرافق المدينة ، كما نجح في زيادة رقعتها بضم بعض المناطق الجنوبية القريبة منها .

وقد اهتم مراد أغا بالناحية الدفاعية للمدينة ، مما أفشل الخطط الصليبية لاستعادتها .

واستمر مراد أغا في حكم طرابلس حتى عام ١٥٥٦م حيث أدركته الشيخوخة ، وأخذ منه العجز كل مأخذ فانسحب إلى "تاجوراء" ، وأنشأ مسجده المشهور بها . ويقال إنه استعان في بنائه بالأسرى الذين كانوا لديه ، ثم أحسن إليهم وأطلق سراحهم بعد إتمام المسجد الذي أقامه على ٤٨ عمودا

وجعله على شكل حصن ، وبعد هذا المسجد من أهم المعالم الأثرية الإسلامية القائمة في ليبيا .

وفي أعقاب وفاة "مراد أغا" صدر أمر سلطاني بتعيين "درغوث" باننا واليا على طرابلس الغرب في عام ٩٦٢هـ/١٥٥٦م وقد كان أكثر اهتماما بالتواحي المعمارية في طرابلس التي جعل منها عاصمة في الشمال الإفريقي، والقاعدة الكبرى لعملياته البحرية الموجهة إلى المنطقتين الوسطى والغربية من البحر المتوسط . وقد عظمت قوة طرابلس بعد أن اتخذ منها "درغوث" قاعدة لعمله الموجه إلى مهاجمة الدول الصليبية ، ورد الأخطار عن ديار الإسلام ، واستخلاص المناطق الواقعة تحت السيطرة الصليبية .

وقد نجح "درغوث" في القضاء على ما تبقى من فلول فرسان القديس يوحنا في طرابلس ، ومد النفوذ العثماني إلى معظم السواحل الليبية . ونتيجة لذلك شهدت طرابلس إنتعاشا بعودة السيادة الإسلامية إليها فقد عاد إليها سكانها الذين كانوا قد هجروها ونزحوا إليها إلى الضواحي أثناء الاحتلال الإسباني وفرسان القديس يوحنا وعادت إليها الحياة نتيجة ازدهار الحركة العسكرية بها ، وانتقال بعض الجنود المشاركة إليها ضمن القوات العثمانية . وقد حرص العثمانيون على أن يجعلوا منها قاعدة بارزة لأسطولهم ، وانصببت فيها الغنائم والسبايا والأسرى . وعادت من جديد إلى الاتصال بالمدن الإسلامية . وقد انصرف إهتمام "درغوث" في تقوية وسائل الدفاع عن المدينة فعمل على تدعيم أبراجها فأقام "برج التراب" على الجانب الشمالي الغربي من سور المدينة الأصلي ، كما أنشأ مسجده المعروف في عام ١٥٥٤م والذي لا يزال قائما حتى الآن ، وبنى لنفسه قصرا كبيرا كما أنشأ دارا للبارود ما تزال أثارها قائمة حتى الآن .

وعلى الرغم من الظروف الحربية التي واجهت "درغوث" فإنه استطاع تطوير مدينة طرابلس وتجميلها مستعينا في ذلك بالأمري الذين كانوا في حوزته .

ونتيجة للتحصينات التي أقامها "درغوث باشا" لم يعد فرسان القديس يوحنا يفكرون في الهجوم على طرابلس ، أو التفكير في غزوها بل اتجه فكرهم إلى تشجيع الأعمال التخريبية سواء بظرابلس أو جربة .

وبعد وفاة "درغوث باشا" تولى "يحيى باشا" الحكم في طرابلس الغرب ولكنه لم يعمر طويلا فتولى الحكم مكانه "محمد بك" الذي ثار الأهالي ضده ، ولم تتوقف ثورتهم إلا عندما تولى مكانه "علج علي" الذي عمل على تحصين مدينة طرابلس وتقوية دفاعاتها ، فبنى برجاً بهدف أن يكون مخزناً للبارود لذلك سمى بدار البارود . وخلال ذلك نشط "علج علي" في جهاد الإسبان ، ورصد تحركاتهم ونقل أخبارهم للسلطان العثماني .

وخلال تلك الفترة ، ورغبة من الدولة العثمانية في الحفاظ على وجه هذا الإقليم عربيا وإسلاميا استمر الباب العالي في إرسال فيالق الإنكشارية لتعزيز الحامية العثمانية لمنع أى هجوم قد يقع عليه من جانب الإسبان أو فرسان القديس يوحنا . كما اهتمت الدولة العثمانية بتحصين سواحل طرابلس . ونظرا لاستمرار فيالق الإنكشارية في هذا الإقليم فقد تزوجوا من النساء العربيات ، وامتلكوا الأراضي الزراعية وأشجار النخيل ، وكان حصيلة هذه الزيجات نشأة طبقة عرفت باسم "القولوغلية" (١) .

(١) طبقة اجتماعية جديدة نشأت نتيجة اختلاط الجند الإنكشارية بالأهالي ، وكانت في بدايتها قليلة العدد ثم سرعان ما تكاثرت وزاد نفوذها بما حصلوا عليه من امتيازات مالية وعسكرية .

وقد تعاقب على أمر البلاد فى هذه المرحلة ولاية كانوا أقل شأنًا من الولاية العظام الذين سبقهم إلى الحكم ، كما واجه الحكام المتعاقبون سلسلة من الاضطرابات ، والثورات المستمرة التى كان يثيرها الأهالى الذين كانوا يرفضون دفع الضرائب المفروضة عليهم ، واستمرت الأمور على هذا المنوال حتى وصل "أحمد القره مانلى" أحد رجال الإنكشارية إلى أريكة الحكم .

ثانيا : عهد أسرة القره مانلى : ١١٢٣-١٢٥١هـ / ١٧١١/١٨٣٥م

أسس هذه الأسرة أحمد القره مانلى ، وهو سليل أسرة تركية تنتمى إلى بلدة قره مانيا الواقعة جنوبى هضبة الأناضول بآسيا الصغرى ، وكان يمتلك شخصية قوية طموحة واسعة الحيلة ساعدته على أن يتغلب على كثير من المصاعب التى تعرض لها . فقد وقف موقف المتفرج من الخلافات التى كانت قائمة بين الباشا والديوان وجند الإنكشارية والقبولوغية ، وأظهر عدم انحيازه لأى فريق ، حتى فاز برضاء الجميع وتمكن من نيل رضا العديد من الجند الإنكشارية وأعضاء الديوان بل ومعظم أعيان طرابلس حتى أجمعوا على حثه وتأييده حتى طرأ بس ١١٢٢هـ / ١٧١١م بدلاً من الوالى المعين من قبل السلطان ، والذي كان غائبا عن البلاد وقتذاك . ومع ذلك فقد ظلت الصعوبات تواجه "أحمد القره مانلى" فى الخارج والداخل ، فمن الخارج أرسلت الدولة العثمانية حملة لتأديبه ، ولكنها فشلت فى مهمتها مما جعل السلطان "أحمد الثالث" يصدر فرمانا شته فيه فى حكم طرابلس ومنحه لقب الباشوية ، كما جعل حكمه وراثيا فى أسرته .

أما فى الداخل فقد تمكن من القضاء على فتن الضباط الإنكشارية الطامعين فى الحكم والراغبين فى بقاء مقاليد الأمور بأيديهم وذلك بعد أن تخلص منهم بمكيدة دبرها لهم فدعاهم إلى حفل فى منزله الريفى شتم أسر رجاله بذبحهم .

وقد اعتمد أحمد باشا على العنصر الوطني في الجيش والإدارة فأوكل الأعمال الإدارية لأبناء البلاد ، وجعل اللغة العربية اللغة الرسمية فيها ، كما كان يتولى بنفسه قيادة الجيش للقضاء على الاضطرابات والفتن الداخلية . وقد استطاع أن يستعيد السيطرة على إقليم فزان الذي كان بعيدا عن سيطرة السلطة الحكومية ، وبذلك تمكن من فتح طرق التجارة عبر الصحراء من أفريقيا ، وسارت القوافل بين طرابلس والمدن الإفريقية في جنوب وغرب القارة بطريقة منتظمة .

وقد احتّم أحمد القره مانلى بالأسطول وأعلن الجهاد ضد السفن الأجنبية التي لا تدفع له الأتاوة ، كما قام بتدعيم سلطته وترسيخها لمواجهة كافة الاحتمالات والتهديدات التي تضمن عدم مهاجمة الشواطئ الليبية بواسطة السفن الأوربية من الخارج ، وإخماد كل محاولة لإثارة الفتن والتمرد ضد حكمه في الداخل . لذلك قام بإنشاء وتجديد الوسائل الدفاعية لولايتيه ، فبدأ بتجديد أسوار طرابلس وتقويتها ، وشرع في إنشاء الأبراج ، وعنى بتزويد الحصون بمدافع من عيارات كبيرة ، وأرسل الأموال والهدايا إلى عاصمة الخلافة لشراء الأنواع الجيدة من الأسلحة .

وقد اتسمت علاقات أحمد القره مانلى مع الدول الأوربية بالعداية بسبب مهاجمته للسفن الأوربية في عرض البحر المتوسط ، وفرض أتاوات عليها ، وكانت معظم الدول الأوربية تخضع لشروطه ضمانا لسلامة سفنها ، وكانت إنجلترا وهولندا من أوائل الدول الأوربية التي منارعت إلى دفع الأتاوة حتى تأمن على سفنها العاملة في البحر مما أدى إلى حصوله على الأموال الكثيرة والغنائم .

وفي عهده هاجم الفرنسيون طرابلس بثلاثة عشر قطعة بحرية ردا على الإهانات التي ألحقها البحارة الطرابلسيون بالبحارة الفرنسيين ورغبة في

إطلاق سراح أسراهم • ولكن الباشا لم يرضخ لمطالبهم رغم القصف الشديد الذي تعرضت لوجيزابلس من مدافع الأسطول الفرنسي •

وبالنسبة للنواحي العمرانية فقد استطاعت شخصية أحمد القره مانلى أن تحفر بصماتها على الحركة العمرانية تتجلى آثارها الباقية فى المسجد الجميل الذى يحمل اسمه ، والذى بدأ فى بنائه عام ١٧٣١ وانتهى منه فى عام ١٧٣٧ وألحق به مقبرة ومدرسة ، وفى البيوت والمخازن التى بناها فى القلعة هذا إلى جانب إمداده لمدينة طرابلس بالماء لنفع أهلها ، وقيامه ببناء "صقية" لسقى أهل السفن على البحر •

والحق أن أحمد باشا كان من الولاة القلائل الذين خلفوا طابعهم المعماري على مدينة طرابلس •

ونظرا لبروز دور الأسرة القره مانلية عقدت العديد من الدول الأوربية، والولايات المتحدة معاهدات معها حتى يمتنعوا عن التعرض لسفنيهم فى نظير دفع الأتاوات الباهظة والهدايا الثمينة لهم مما أكد استقلاليتهم الواضحة عن العثمانيين وأثبت أن العلاقة معهم لا تزيد عن علاقة إسمية تنسم بالولاء للسلطان العثماني ، وترتبط بالصلوات الروحية مع الدولة العثمانية ، واستمر أحمد باشا فى حكم ولاية طرابلس مدة ٣٤ عاما استطاع خلالها تثبيت حكم الأسرة القره مانلية فى ليبيا ، وتأكيد وحدة هذه البلاد وقد خلف "أحمد القرمانلى فى الحكم ابنه "محمد باشا" (١١٥٨هـ/١٧٤٥م) فقد أجمع الناس عليه لما يتمتع به من سمعة طيبة ، يضاف إلى ذلك أنه ورث حكم البلاد الليبية بعد أن استقر أمرها ، وزادت إيراداتها ، وأصبحت مهابة الجانب من الدول الأوربية البحرية فقد تسارعت هذه الدول إلى عقد المعاهدات معه ودفع الأتاوات له • وكانت هذه المعاهدات تتم دون أخذ رأى الأمستانة •

ومع ذلك فلم تخل فترة محمد باشا من فتن وثورات ، كان من نتيجتها اضطراب أمور البلاد وتعرض حياة الناس وأرزاقهم للخطر ، وانتشرت أعمال اللصوصية والسلب والتهب لدرجة أن ضج الناس ، واستضرخوا الباب العالي ، وزاد الطين بلة إنقسام الأسرة القره مانلية على نفسها مثل فتنة "أحمد بن حسن كخيا" صهر الباشا وإخوته ، ومؤامرة الألبان والأرناؤوط لخلع الباشا . وعلى الرغم من نجاح الباشا في إخماد هذه الثورات فقد اعتلت صحته وانتهى الأمر بوفاته في ٢٤ يوليو ١٧٥٤م وله من العمر ٤٥ سنة .

أما الحاكم الثالث من أفراد الأسرة القره مانلية فكان "علي باشا" الذي تولى أريكة الحكم وعمره ثلاث وعشرون سنة ، وكان لحداثته سنة أكبر الأثر في مشاركة قادة الإنكشارية له في الحكم ، على أن أهم الأحداث التي عصفت بحكمه تمثلت في المجاعة وانتشار الطاعون بين الأهالي وعجز الحكومة عن دفع مرتبات الجند والأساليب التعسفية التي لجأ إليها رجال الباشا خلال جمع الأموال من القبائل ، هذا بالإضافة إلى الأحداث التي ارتبطت بالشقاق العائلي بين أفراد الأسرة القره مانلية والخلاف بين "حسن القره مانلي" وأخيه "يوسف" الذي انتهى بمقتل الأول واستعانة بعض أفراد الأسرة بباشوات الجزائر وتونس ثم طرد الأسرة القره مانلية من الحكم وما صاحب ذلك من صراع من أجل عودتها إليه . كل ذلك كان له أثره على الحياة العامة في البلاد وانتهى الأمر بصدور فرمان سلطاني بتولي "يوسف بك" أمور الولاية (١٧٩٥) بدلا من أخيه "أحمد الثاني" الذي كان أحق منه بالولاية . ولتوضيح الوضع العام الذي كانت عليه ليبيا خلال هذه الفترة ، والأثر الذي خلفته الأحداث السابقة على أوضاعها الاقتصادية والبشرية والعمرانية فإن المؤرخين يتفقون على أن مدينة طرابلس قد كانت في أسوأ حال غداة استيلاء "يوسف باشا القره مانلي" على السلطة وكان عليه أن يواجه كثيرا من المتاعب في سبيل تأكيد حكمه وتوفير المال اللازم لمواجهة التزاماته العامة ومهما كان الرأي حول الطرق التي سلكها هذا الرجل في



الوصول إلى الحكم إلا أن هناك اتفاقاً على أن البلاد قد نعمت بشئ من الاستقرار والانفتاح على التطور الحضارى في عهده . مما كان له أثره على الأوضاع الاقتصادية والعمرانية بالبلاد .

وقد أهتم يوسف باشا بتشجيع حركة الملاحة ، وإعادة تنظيم البحرية التي كانت تشكل المورد الرئيسى للبلاد ، كما أهتم بمتابعة الأحداث فى البحر المتوسط والصراع القائم بين إنجلترا وفرنسا ، وقام بتشجيع حركة القرصنة التي كانت تدر على خزانته المال الذى يمكنه من تثبيت حكمه ، وخلال ذلك كانت علاقة يوسف باشا بفرنسا ودية ، مما يفسر لنا مساندته للحملة الفرنسية على مصر وترتيب أمر نقل الأسلحة والذخائر إليها من فرنسا بطريق ليبيا بعد تدمير الأسطول الفرنسى فى موقعة "أبي قير البحرية" مما أدى إلى استياء إنجلترا والدولة العثمانية أيضا من موقف يوسف باشا ، ففى الوقت الذى كان يريد فيه السلطان العثمانى إخراج الفرنسيين من مصر نجد يوسف باشا يساعد الفرنسيين على البقاء فى مصر : ونتيجة لاستياء الدولة العثمانية من ذلك الموقف عدل الباشا عن موقفه ، وحاول استرضاء السلطان مع الحرص على بقاء علاقاته الضيقة مع فرنسا . أما عن علاقة "يوسف باشا" بالولايات المتحدة فلم تكن طيبة نتيجة لتعرض السفن الأمريكية العاملة فى البحر المتوسط لاعتراض السفن الليبية ، وإجبارها على دفع الأتاوات . ونتيجة لذلك حاولت الولايات المتحدة معاقبة الباشا عن طريق حصار ميناء طرابلس وضربه بالقنابل ، ولكن ما حدث هو أن جنحت سفينة أمريكية تدعى "فيلادلفيا" على الشاطئ الليبى فى ٣١ أكتوبر ١٨٠٣ فأُسرها جنود "يوسف باشا" بما عليها من بحارة ورفضوا إطلاق سراحهم إلا إذا تعهدت الولايات المتحدة بدفع الأتاوات التى تفرض على سفنها .

ونتيجة لقرارات مؤتمر فينا (١٨١٥) وإكس لاشابل (١٨١٩) بتجريم عملية القرصنة البحرية وتحريمها توفقت الدول الأوروبية عن دفع الأتاوات

مما أدى إلى نضوب خزانة "يوسف باشا" مما دفعه إلى الاقتراض من الأجانب ، وفرض الضرائب على الأهالي واتباع أسلوب الشدة والبطش ضد معارضيه . وانتهى الأمر بتخليه عن الحكم لابنه على فى ربيع الآخر ١٢٤٨هـ / ١٨٣٢م .

وقد بذل "على القره مانلى" جهوده لإعادة الأمن والنظام إلى البلاد وقام بإلغاء الضرائب التى فرضها والده .

ومع ذلك فقد استمرت الثورات ، نتيجة لسوء الأحوال الاقتصادية وانتشار الفتن ، وعدم انتظام الأمور مما أدى إلى فى النهاية إلى القضاء على حكم الأسرة القره مانلية فى ليبيا تماما فى المحرم من عام ١٢٥١هـ الموافق ٢٦ مايو ١٨٣٥ ، وقيام الدولة العثمانية بوضع حد لهذه الأحوال المضطربة ، فبدأت لذلك حملة كبيرة مكونة من ٣٢ سفينة بقيادة "مصطفى نجيب باشا" وصلت إلى طرابلس حيث قابلها الأهالي بكل مظاهر الحماس . وقد تمكنت هذه الحملة من الاستيلاء على كل القلاع والحصون والمواقع الاستراتيجية فى طرابلس وفرض الحكم العثماني المباشر على الإقليم حيث قرأ "نجيب باشا" أمام أعضاء الديوان الفرمان السلطاني بعزل "على باشا" وبأنه يجب أن يذهب هو وأسرته ومن يريد أن يصحبه معه إلى الأسانة ثم استقبال قناصل الدول المعتمدين بالولاية ، وأبلغهم بذلك وبذلك أعلن الباب العالي نهاية الأسرة القره مانلية .

وهكذا حكمت الأسرة القره مانلية ولاية طرابلس حكما وراثيا لم تستطع خلاله تنمية أمور هذه البلاد أو المحافظة على شئونها مما أدى إلى انتشار الفوضى والثورات والحروب الأهلية والمجاعات حتى ضاق الأهالي ذرعا بحكم هذه الأسرة وتمنوا زوالها .

ثالثاً : عهد الولاة العثمانيين بعد انتهاء حكم أسرة القره مانلى (العهد العثماني الثاني) :

تولى شتون ليبيا في الفترة بين ١٨٣٥-١٩١١ وهي الفترة التي يطلق عليها العصر العثماني الثاني ثلاثة وثلاثون واليا انصرف الولاة المتعاقبون خلال السنوات الأولى من هذه الفترة إلى إعادة السيطرة العثمانية المباشرة على البلاد ، وتدعيم سلطة الحكومة في مدينة طرابلس والمناطق الداخلية ، هذا بالإضافة إلى تعقب شبيعة الأسرة القره مانلية المعزولة .

وقد واجهت الحكومة العثمانية خلال هذه الفترة صعوبات جمة تمثلت في الموقف المعادي من زعماء الداخل مما تطلب منها جشد قواتها للقضاء على عصيانهم خاصة بعد خروج بعض المناطق على سلطة حاكم طرابلس فقد "اهتم نجيب باشا" أول وال عثماني بعد انتهاء الأسرة القره مانلية بتصفية الموالين لحكم هذه الأسرة أو إعلان طاعتهم للحكم الجديد ، ومع أن "غومة المحمودي" أحد زعماء الدواخل قد باشر بإعلان طاعته للحكومة الجديدة ، ومساندة الموقف الموالي للحكم الجديد فإن الوالي التركي لم يطمئن إليه وأودعه السجن ، كما قام بحركات قمع واسعة النطاق في المناطق المجاورة لمدينة طرابلس خاصة ضد أهالي الساحل الذين رفضوا تسديد ما عليهم من ضرائب ، وأظهروا رغبتهم في التمسك بالحكم الذاتي ، وأرغمهم على الاستسلام بعد أن أوقع فيهم القتل والتفكيك مما كان له أثره في استسلام بقية المناطق المجاورة لطرابلس .

وقد سيطر على طرابلس خلال تلك الفترة جو عسكري صارم تمثل في سياسة القوة التي سلكتها الحكومة العثمانية .

وخلال تلك الفترة ازدادت الأوضاع سوءاً بعد أن انتشر مرض الطاعون في ليبيا ، وارتفع عدد ضحاياه ، مما أدى إلى هجرة معظم السكان للبلاد .

ومع كل ذلك فقد عمل بعض حكام هذه الفترة أمثال "رائف باشا" على ترقية شئون البلاد . أما الباقون فقد كان معدل ولاية الواحد منهم أقل من سنة فلا يكاد أحدهم يستقر في ولايته حتى يصدر فرمان بعزله وتولية غيره، لذلك كان الوالي يسعى بمجرد وصوله إلى البلاد في جمع أكبر مبالغ ممكنة من الأموال لأنه يعلم أن بقاءه في منصبه لن يطول . لذلك لم يهتم السلاطة بأى عمل جدوى في الولاية ، كما صُرفوا وقتهم في إخماد الثورات التي انتبع نطاقها ، فقد تزعم "عثمان أغا" الثورة في "مصراته" وأكد "عبد الجليل مسيف النصر" سيطرته على فزان ، وقاد "غومة المحمودى" الثورة ضد الحكومة في "فغن" بالجبل الغربى هذا إلى جانب ثورات الجند بشأن عجز الإدارة عن دفع مرتباتهم .

وقد نجحت هذه الثورات في إجهاض محاولات الحكومة إعادة الاستقرار إلى البلاد ، وزاد الطين بلة تعرض البلاد للمجاعات بسبب قلة الأقطار وانتشار الجفاف، وتوقف الحصول على الأتوانات من السفن الأوربية .

ومع كل هذه المشاكل والصعوبات فإن بريق الأمل فى الإصلاح لم ينقطع ، فقد قام بعض الولاة بعدد من الأعمال العمرانية والتنظيمات الإدارية والإنشاءات العسكرية توضع فى سجل تاريخهم . فلما تولى "على عسكر باشا" (١٨٣٨-١٨٤٢) شئون ليبيا أتم ترميم المساجد ، وبناء دار جديدة للحكومة ، وعندئذ تولى "محمد أمين باشا" الحكم (١٨٤٢-١٨٤٧) اتبع سياسة التسامح مع خصومه فأطلق سراح المعتقلين وألزم الناس بالطاعة والإذعان ، وقد هيأت هذه حكمة الطويل الفرصة لإجراء بعض التنظيمات الإدارية التى شملت القضاء والإدارة والشئون المالية فتم تنظيم الأقسام الإدارية فى الولاية وأنشئت المجالس المحلية ، ووضعت السجلات المتنوعة،

وأعيد تنظيم الضرائب من حيث فرضها وجمعها ، ولعل من أبرز أعماله  
المعروفة إنشاء المستشفى العسكري بطرابلس .

- وفي ولاية أحمد عزت باشا ( ١٨٤٨ ) التي تميزت بالهدوء في بدايتها
- تم عمل إحصاء للسكان ، كما تم زيادة عدد أفراد الحامية وقد صرف هذا
- الوالي عهده إلى تحقيق التقارب مع تونس سعيا للوقوف في وجه السياسة
- الفرنسية التي كانت ترمى إلى توطيد أطماعها في الشمال الأفريقي .
- وقد تميزت فترة عزت باشا بمعارضة التغلغل الأوربي والوقوف في
- وجه الأطماع الأجنبية .

وفي ولاية "محمود نديم باشا" ( ١٨٦٠ ) والتي بلغت سبع سنوات شهدت  
البلاد فترة من الهدوء والأمن والاستقرار وحسن الإدارة ، فقد اهتم هذا  
الوالي بتطوير الأوضاع العامة في البلاد ، وتطوير مزارعها  
ومصنوعاتها . كما قام بعمل تنظيم إداري جديد للبييا فأنشأ المحاكم لضمان  
الحل والمساواة بين الأهالي ، ففي عهده تم إنشاء المحاكم المدنية والجنائية  
وال تجارية ، وفي عهده انشئ أول مطبعة في طرابلس ، وصدرت أول جريدة  
بمدينة طرابلس باسم (طرابلس الغرب) وكانت تصدر بالتركية والعربية ،  
وإلى جانب ذلك فقد نظمت إدارة البريد وتم توصيل طرابلس ببعض المناطق  
الليبية عن طريق التلغراف وتم بناء الأسواق ودور التخزين وفي عهده تم  
فتح بوابة جديدة لميناء طرابلس من الناحية الغربية لعمران تلك الجبهة ،  
وتسهيلا لسبل الاتصال بين سكان المدينة والقرى المجاورة . كما اهتم  
الوالي أيضا بمحاربة بعض التقاليد السيئة فأبطل ما كان يجرى في ليلة  
عاشوراء من قيام بعض الرعا من العامة بحمل شبه رأس جمل يدورون به  
في أزقه وجوارى البلاد .

وما من شك في أن طرابلس نعتت في عهد هذا الوالي بالكثير من الهدوء والاطمئنان ، فانتعشت فيها الحالة التجارية والاقتصادية بفضل مساهمته في تطويرها والتبؤبؤ بها .

وفي عهد "الفريق علي رضا" (١٨٦٧) الذي جمع في شخصه بين قيادة القوات العسكرية ومنصب الوالي تم تطوير ولاية طرابلس وتحسين أحوالها وتنفيذ بعض المشاريع الهامة مثل تسوية الطرق والمعاير في داخل المدينة وخارجها وتنظيم شؤون البريد ، ومد أسلاك التلغراف برا من طرابلس إلى الخمس، ثم إلى الحدود التونسية ، وتشجيع حفر الآبار الارتوازية ، وريبط الأودية ومدها بالترع والسواقي ، وتأسيس سوق العزيزية والحيقة العمومية وإنشاء الساعة التي ما تزال قائمة حتى الآن بميدان الساعة بطرابلس ، والتي تعد من المعالم الأثرية الباقية التي توضح قدرة هذا الوالي على تجميل مدينته وتحسين أحوالها لدرجة أنه حظي بتعاطف وإعجاب الأهالي .

وفي ولاية أحمد راسم شهدت طرابلس اهتماما واضحا وحركة واسعة من النمو والتطوير ، فازداد النمو في مبانيتها ، وتم تبليط شوارعها ، كما قام بحفر بئر للمياه لتسهيل حصول الأهالي على الماء .

وإلى جانب ذلك أنشأ أحمد راسم مستشفى للغرباء في عام ١٨٨٣ كما تم في عهده إنشاء للرصيف الذي عرف باسم رصيف سوق الثلاثاء بسيدف حماية هذه المنطقة وأسواقها ومتاجرها من هيجان البحر .

لقد كان الأثر العملي الذي خلفه أحمد راسم باثنا على طرابلس واضحا ، ولا شك في أن أعماله العمرانية واهتمامه بمدينة طرابلس وتطويرها وتجميلها تضعة ضمن الولاء الذين تركوا أثرا في الحياة العامة بليبيا ، فقد نعت البلاد في عهده بنوع من الاستقرار وشهدت تطورا واضحا في كافة مرافقها ، وازدهرت بها الحياة الاقتصادية والتجارية .

التي تمت في عهد الوالي حافظ باشا تم العمل على تنظيم الإدارة ، وعلى الرغم من ذلك فقد تعاقب على حكم ليبيا مجموعة من الولاة تفاوتت مدة حكمهم طولا وقسرا ومع ذلك لم يتركوا أى أثر فى الحياة العمرانية يذكر لهم .

ولعله من الطريف أن نذكر أنه بعد قيام الثورة فى تركيا وسقوط السلطان عبد الحميد استقبل أهالى طرابلس ذلك بترحاب كبير ورأوا أن الفرصة سانحة لحصول بلادهم على نوع من الاستقلال فقاموا بإجراء إنتخابات لاختيار ثمانية أعضاء يمثلون ولايتهم فى مجلس المبعوثان بالامانة ، ولكن خاب أملهم بسبب سياسة الاتحاديين الذين اتبعوا الأسلوب المركزى فى الحكم وعينوا فى ليبيا موظفين غرباء لا يعرفون لغة أهل البلاد، وحاولوا فرض سياسة التنريك التي كانت إحدى السمات الأساسية لحكمهم .

وهكذا لم يرتبط الحكم العثماني فى ليبيا بسياسة واضحة ومرسومة لحكم البلاد وتنميتها والأخذ بيدها ، بل كان هذا الحكم فى مجمله غير قادر على إدارة هذه البلاد بطريقة سليمة خاصة وأن كل هم العثمانيين كان جمع الضرائب فى وقت قلت فيه الأموال فى أيدي دافعيها . يضاف إلى ذلك أن للدولة العثمانية لم تقم بإصلاحات تذكر فى هذه الولاية لتحسين المواصلات أو التعليم أو للقضاء على الأوبئة والاهتمام بالصحة العامة ، فضلا عن ذلك فإن النظام الإدارى فى هذه البلاد صار موزعا بين رؤساء الأسر الكبيرة والشيوخ ، وكان من هؤلاء السنوسيين الذين اختصوا بالأمور المحلية فى العديد من المناطق التي قامت فيها الزوايا السنوسية خصوصا فى فترة العهد العثماني الثاني . فكان رجالات الدعوة السنوسية بمثابة همزة الوصل بين

العثمانيين والأهالي . فقد قبل الأهالي الزعامة السنوسية كمسئلة لهم وذا ذلك باسمهم . واعترفت الحكومة العثمانية بالأمر الواقع وتقربت منه . فقد منحت أول اعتراف رسمي بالسنوسية في فرمان أصدره السلطان عبد المجيد الأول (١٨٥٦) سمح فيه للسنوسيين بجمع ضريبة دينية من أتباعهم ، وأعطى زواياهم من الضرائب ، كما ثبت السلطان عبد العزيز (١٨٦١) هذه الامتيازات وسمح بأن تكون السنوسية "حمى" يمكن للناس أن تحتصي قبضه ، وفي نفس الوقت كان حرص السلطان عبد الحميد (١٨٧٦) على بقاء علاقاته الحمودة مع السنوسيين . وفي نظير ذلك تكفلت الحركة السنوسية بمهمة جمع الضرائب من الأهالي في المناطق النائية ، كما اعترفت بفكرة الخزانة العثمانية والدعاء للسلطان العثماني على منابر المساجد يوم الجمعة على أساس أن الإسلام لم يفرق منذ ظهوره بين الدين والدولة لذلك فإنه يحق لكل عثمان الجمع بين السلطتين الدينية والزمنية ، وبذلك يصبح السلطان العثماني خليفة للمسلمين ويحق له تدبير شئون الدنيا للمسلمين إلى جانب شئون الدين . ونتيجة لذلك عظم شأن السنوسيين ، وزاد أتباعهم بين كبار رجال الدولة العثمانية وكان من أثر ذلك ازدياد سطوة السنوسية في برقة وطرابلس لدرجة أصبحت معها السلطة الفعلية دينية وزمنية بيد شيوخ الزوايا السنوسية . واستمرت الأمور على ذلك حتى ساءورت السلطان عبد الحميد الشكوك في نوايا السنوسيين نتيجة لوشايات بعض الأوربيين ضدهم لدرجة أصدرت معها الدولة العثمانية أوامرها إلى موظفيها بجمع ضرائب على ما تنتج أراضي الزوايا ولكن السنوسيين رفضوا ذلك بقوة مما جعل الحكومة العثمانية تعدل عن ذلك .

وعلى أي حال فإنه نتيجة لضعف الدولة العثمانية واضطراب أحوالها تحللت إيطاليا للسيطرة على ليبيا ومهدت لذلك بتغلغل نفوذها الاقتصادي والثقافي فحصلت على امتياز بفتح فرع لبنك روما في كل من طرابلس



وبركة عام ١٩٠٥ ذلك البنك الذي لم يقتصر دوره على الأعمال البنكية ، بل دخل في عمليات الرهن والتسليف مع الأهالي ، وإقراض الأموال لأصناف من الأراضي الزراعية ثم سلبها منهم ، كما فتحت إيطاليا المدارس المجانية في ليبيا بقصد نشر الثقافة الإيطالية ، وأنشأت المستشفيات والملاجئ للمرضى والانتزاع ، وأنشأت مكتبا للبريد في بنغازي وإلى جانب ذلك قامت بإرسال البعثات العلمية لاكتشاف المناطق الداخلية في ليبيا ومسح أراضيها هذا في الوقت الذي لم تقم فيه الدولة العثمانية بأى عمل جدى لوقف التوغل الإيطالي في ليبيا .

ولكى تترى إيطاليا أهدافها الاستعمارية في ليبيا بدأت بالتدريج بممارسة الأتراك في ليبيا ، وطالبتهم بضرورة إصلاح أحوال هذه البلاد ، والنهوض بها ، وبعد أن تهيأت الأذهان أمام سيطرة الإيطاليين على ليبيا طالبت إيطاليا الدولة العثمانية في سبتمبر ١٩١١ بعدة مطالب لها في ليبيا هي :

- ١- خروج العساكر العثمانية من طرابلس وبنغازي ودerna .
- ٢- تشكيل قوات عسكرية في هذه المناطق تحت قيادة ضباط إيطاليين .
- ٣- أن تكون إدارة الجمارك في ليبيا تحت أيدى موظفين إيطاليين .
- ٤- أن يتم تعيين والى طرابلس بموافقة إيطاليا ورضاها .

ولم تكتف إيطاليا بذلك بل وجهت إندارا إلى الدولة العثمانية تتهمها فيه بعدم النهوض بليبيا ، وتجاهل رغائبها فيها ، ومعارضة مشروعاتها هناك رغم مصالحها الحيوية في هذه البلاد ، هذا إلى جانب قيامها بتحريض الأهالي على الرعايا الإيطاليين بخاصة ، وعلى الرعايا الأجانب على اختلاف جنسياتهم بعمامة مما جعلهم يخشون على حياتهم ، ويشرعون في الهجرة من هذه البلاد . ونتيجة لذلك فإن الحكومة الإيطالية مضطرة حرصا على مصالحها وشرفها إلى إحتلال طرابلس وبنغازي إحتلالا عسكريا وقد

صدرت الأوامر إلى السفير الإيطالي في الأستانة بالحصول على رد من الحكومة العثمانية على هذا الإنذار في مدة أربع وعشرين ساعة وإلا فلن الحكومة الإيطالية مضطرة إلى إحتلال ليبيا .

وعند تحليلنا لهذا الإنذار نجده يثير الدهشة والاستغراب ولانجد سببا واحدا معقولا من الأسباب التي وردت فيه يدعو إيطاليا إلى القيام بهذا العمل العدائي . فكل من المنطقي أن تهدد إيطاليا باحتلال المدن الليبية لأن الدولة العثمانية لم تعمل على التهوض بهذه البلاد . وهل من المنطقي أن تهدد إيطاليا بالاستيلاء على ليبيا لأن الدولة العثمانية لم تمنحها امتيازات إقتصادية ، بتأقضى حقوقها في هذه البلاد .

وللإجابة على ذلك نجد أن إيطاليا استغلت ضعف الدولة العثمانية وانشغالها وسوء أحوالها في تحديدها والإقتراء عليها ، كما أنها أرادت أن تحول أنظار الشعب الإيطالي إلى الخارج حتى تبعده عن التفكير في مشاكل بلاده الداخلية .

وكان رد الدولة العثمانية على هذا الإنذار ضعيفا حيث حاولت التخلص من إتهامات إيطاليا لها ، وأظهرت حسن نيتها تجاه الإيطاليين ومشروعاتهم الاقتصادية في طرابلس وبرقة ، ودعت إلى إجراء مفاوضات بين البلدين بهدف تجنب الحرب، وحسم النزاع بينهما بالطرق السلمية مقابل أن تعطى إيطاليا مركزا ممتازا في ليبيا، كما قامت الدولة العثمانية بإرسال برقيات إلى الدول الأوروبية تطلب منها التوسط في الأمر ، ولكن إيطاليا رفضت كل هذه المحاولات ، وأعلنت الحرب على الدولة العثمانية في ٢٩ سبتمبر ١٩١١ وبدأت في محاصرة طرابلس مدة ثلاثة أيام حتى سقطت بعد قتال غير متكافئ حدث خلاله مجزرة بشرية تمثلت فيها أفضع أدوار الهمجية وبعدها تم للإيطاليين احتلال الموانئ والنقط الساحلية في ليبيا في أكتوبر ١٩١١ أما

بأقى المناطق فقد ظلت فى أيدى القوات الوطنية التى وقفت للإيطاليين بالمرصاد .

وقد واجه المجاهدون الجيش الإيطالى فى معارك طاحنة استمبلوا فيها ولكن الفارق فى التسليح والإمكانات كان له أكثر الأثر فى حسم المعركة لصالح إيطاليا .

وبعد أن عجزت الدولة العثمانية عن مد يد العون الفعلية إلى الأهمالي وفشلت قواتها فى مواجهة الموقف اضطرت إلى عقد معاهدة "أوشى لوزان" مع إيطاليا والتي انسحبت بمقتضاها من ليبيا فى ١٨ أكتوبر ١٩١٢ وتركتها لقمة سائغة للإيطاليين ، كما تركت أهلها يقاومون الجيش الإيطالى بمفردهم مقاومة عنيفة لأكثر من ثلاثين سنة .

وبهذه المعاهدة خرجت الدولة العثمانية من ليبيا تاركة الزعامة السنوسية تقف بمفردها فى مقاومة الاستعمار الإيطالى مما كان له أكبر الأثر فى تطور الموقف فى غير صالح الليبيين ، هذا عن تاريخ ليبيا فى العصر العثمانى وحتى سقوطها تحت برائن الاحتلال الإيطالى ويبقى لدينا فى هذا الفصل التعرض لنظام الحكم العثمانى وأحوال هذه البلاد الاقتصادية والاجتماعية فى ظله .

#### ١- نظام الحكم العثمانى فى ليبيا

كان لموقع هذه الولاية من الممتلكات العثمانية ، وبعدها عن مقر السلطة أكبر الأثر فى رغبة الحكومة العثمانية إلى قصر مدة الولى مخافة أن يستقل بالبلاد ، مما جعل الولة لا يهتمون إلا بمصالحهم الخاصة لذلك لم تشهد طرابلس خلال الحكم العثمانى أى سياسة متكاملة يمكن أن يطلق عليها حركة عمرانية . حقيقة أنه خلال فترات الهدوء والأمن تعاضمت بعض الأعمال العمرانية ولكنها كانت فردية فقد اهتمت الدولة العثمانية بإقليم

طرابلس الغرب عسكريا ولم تهتم به مدنيا ، كما اقتضت غاية بعض  
الولاة منه على بعض المدن الساحلية ولم تشمل المناطق الداخلية مما أضعف  
الإدارة العثمانية في الداخل ، وأدى إلى أضعاف الثقة بين الحاكم والمحكوم  
وتعكير صفو الحياة الهادئة في كثير من الأحيان ، وانحدار هيئة الوالي ،  
وكثرة الفتن والثورات خاصة في مناطق القبائل . لقد أديرت ولاية طرابلس  
الغرب من قبل وال يساعده نائب يسمى "الكاهية" و"خازندار" يختص بشئون  
الخزينة ، إضافة إلى الكتبة ، والمستشارين ، وقاضى الجند ، والموظفين  
الإداريين ووكيل الخياطة والخراج وإلى جانب هؤلاء كان القضاة الذين  
يرسلون من استبول .

وقد قسمت ولاية طرابلس إلى قسمين الأول طرابلس ويضم المنطقة  
الغربية وقران ، والثاني بنغازي ويضم المنطقة الشرقية . وقد مرت  
طرابلس بفترات قوة وفترات ضعف فعندما تكون ملحة الحكومة قوية تزدهر  
حالات الاستقرار وتتزايد الأعمال العمرانية ويتم بناء المساجد والمدارس  
وغيرها وعندما تصبح الحكومة ضعيفة تنتشر الثورات الداخلية ، ويصعب  
السيطرة على زمام الأمور وتسخر كل الجهود لإعادة النظام . ومع كل ذلك  
فقد نظر الأتالي للعثمانيين نظرة حماة الإسلام الذين دفعوا عنهم شر  
الهجمات الصليبية سواء من الإسبان أو فرسان القديس يوحنا .

وبالنسبة للضرائب وطريقة جبايتها فقد تم تنظيمها وفقا للأعراف  
السائدة ، والطرق المتبعة مع الشريعة الإسلامية ، فطبقت ضريبة العشر ،  
والخراج ، والمكوس الجمركية ، والضريبة الشخصية وضريبة الأملاك على  
العقارات والأدواب .

وإلى جانب ذلك فقد شكلت غنائم الجهاد والحروب البحرية ركنا أساسيا  
في إقتصاديات البلاد ، فكان المجاهدون المسلمون يغصبون على السفن  
الصليبية ، ويوزعون ما يغنموه منها بعد إقتطاع الخمس للحكومة .

## ٢- مظاهر الحياة الاقتصادية فى ليبيا خلال الحكم العثمانى

### أ- الزراعة

- انقسمت الفلاحة فى ليبيا إلى قسمين قسم يشمل أصحاب البساتين الكبيرة والأراضى المجاورة لطرابلس وأصحاب الآبار والمياه ، وكان هؤلاء يتقنون الزراعة وخدمة الأرض ويزرعون الحبوب بكميات وافرة كلما توافر المطر، وكان إنتاجهم يزيده عن حاجات الأهالى ، ويصدر الفائض منه إلى موانئ إسبانيا عن طريق البحر • وإلى جانب ذلك فقد كان هؤلاء يزرعون كميات وافرة من الثمار وأنواع الفاكهة والحمضيات وأنواع عديدة من الزيتون •
- أما القسم الآخر وهم أصحاب الأراضى من العرب الذين يأنفون للعمل بالزراعة مع أن أراضيهم كانت جيدة وفى غاية الخصب ، ونظرا لعدم تطوير أساليب الزراعة البدائية فى ليبيا وغلبة سلطة الحكومة وعدم اهتمامها بأمور الفلاحين مال العديد من الأهالى إلى التجارة أكثر من ميلهم إلى الزراعة •

### ب- التجارة الداخلية

- كان يوجد بمدينة طرابلس عدة أسواق نذكر منها :
- سوق الربع وكان يعد أشهر الأسواق بالمدينة ، وهو على شكل أربعة صفوف ، وعلى كل جانب من هذه الصفوف أقيمت دكاكين وبسطات متراصة تحوى مختلف السلع والبضائع مثل اللآلىء والذهب والجواهر والتوابل والعطور النادرة وغيرها من المنتجات الشرقية •
- سوق النخاسة وكان يباع فيه العبيد السود والإماء الرقيقات •
- سوق البن وهو مكان مكتظ بالمقاهى ولا يقدم فيه غير شراء القهوة ، وكان يقصده الأتراك غالبا ليرتشفوا فيه بعض فناجين القهوة •

- سوق الترك وكان يقوم التجار الأتراك والعرب فيه ببيع بضائعهم فى متاجرهم الصغيرة به ، وهى سوق صغيرة بها دكاكين ذات واجهات زجاجية يستطيع المرء أن يشتري فيها معظم ما يريد . ومع أن طبيعة هذا السوق شرقية فإن أغلب الحاجيات المعروضة للبيع كانت أوروبية الصنع .

- سوق الترزية وفيه يركض النساجون لبيع أقمشهم حيث يجرى المزاد العلنى ، وفيه يجلس اليهود والمالطيون لخياطة ، وبيع الأنسجة المختلفة .

وإلى جانب ذلك فقد كانت هناك أسواق للبقاله والملابس النسائية والحزيرية والأواني النحاسية والحداة والنجارة والخيز والخضار والنعال والبنادق والمصوغات الذهبية والفضية هذا بالإضافة إلى السوق الأسبوعية المسماة باسم سوق الثلاثاء والذي كان يجتمع فيه العديد من الأهالى من أجل البيع والمبادلة وتعقد فيه الصفقات .

#### ج- التجارة الخارجية

وعلى الرغم من أن التجارة الخارجية فى هذه الفترة كانت محدودة ، فقد ظلت مدينة طرابلس على صلتها البحرية ببعض المدن الأوربية خاصة إيطاليا كما ظلت أيضا محطة رئيسية لقوافل الحجيج الكبيرة الوافدة من الغرب إلى الشرق ، والعائدة من الغرب إلى الشرق . وقد كان وصول هذه القوافل الكبرى إلى طرابلس من المشاهد الرائعة السنوية ، كما كانت إقامتها عدة أيام بها فرصة لنشاط علمى وتجارى كبير حيث كانت تشتترى الحرير الدمشقى الإيطالى والمصنوعات الزجاجية البندقية وغيرها من الميسرودات المتوفرة فى أسواق طرابلس ، وتبيع ما تحمله من خيوط القطن والبن والعقاقير والتوابل وغيرها من الأشياء المجلوبة من الشرق والغرب وكان الميزان التجارى مع أوروبا فى عهد الأسرة القره مانلية يميل غالبا لصالح طرابلس إذ أن قيمة صادراتها كانت تزيد بواقع الثلث عن الواردات .

وإلى جانب ذلك فقد كان هناك نشاط تجارى مع بعض المناطق الأفريقية أمثال توميكنتو وبورنو ، فقد كان يأتي منهما بعض المصنوعات اليدوية منها البسط والأحزمة الحمراء ، كما كان يجرى تصدير الصوف الممتاز وجلود الماعز والضأن المدبوغة ، والفواكة المجففة وبعض التوابل هذا إلى جانب القمح والشعير والأبقار والأغنام .

#### د- الصناعة

مارس السكان الصناعة التي كانت متوارثة من العهود السابقة وقد برزت في ولاية طرابلس الغرب صناعة المنسوجات والديباغة وكانت لها أسواقها الرانجه داخليا وخارجيا .

### ٣- مظاهر الحياة العلمية والثقافية في ليبيا خلال الحكم العثماني

من الصعب التحدث عن حياة علمية وثقافية مزدهرة في المرحلة المعروفة باسم العهد العثماني الأول وهي المرحلة التي تمتد من استرداد طرابلس من الإسبان ١٥٥١ حتى قيام الأسرة القره مانلية ، فتؤكد المصادر عدم الاهتمام بأي نوع من أنواع النشاط الثقافي والعلمي خلال هذه الفترة ، خاصة وأن الحكام أنفسهم كانوا من طبقة لا صلة لها بالعلم وإنما كانوا فئة من المغامرين والبحارة الذين تمكنوا من الوصول إلى مراكز السلطة ، وقد أدى إهمال شأن العلم والعلماء إلى إحدال المستوى الفكري بين الأهالي الذين سيطرت عليهم الخرافات ، ومالوا إلى التصوف، والاعتقاد في كل من ادعى الولاية بحق أو بغير حق ، ومع ذلك فقد كان للكثائيب والزوايا دورها في نشر التعليم الديني ، وبالنسبة لعصر الأسرة القره مانلية فقد بنى أحمد القره مانلي مدرسة بجوار مسجده كانت ذات أثر ملموس في إنعاش الحياة العلمية في البلاد .

وبالنسبة لمظاهر النهضة العلمية خلال العصر العثماني الثاني فتختصر  
في جيود أحمد باشا راسم في تطوير حركة التعليم والوقوف في وجه  
المدارس الأجنبية من إيطالية وفرنسية والإرساليات التي كانت تسمى إلى  
اجتذاب العناصر المحلية وصيغها بتقافتها .

وقد اشتهر من فقهاء الإسلام في طرابلس خلال هذه الفترة الفقيه "أبي  
علي الحسن بن موسى بن معمر الهواري الطرابلسي" وأحمد بن عبد الحميد  
الزويدي كما تختصر في جهود نائق باشا الذي تأسست مدرسة الفنون  
والصنائع في عهده ، وصدرت في عهده جريدة الترقى لصاحبها "الشيخ  
محمد البوصيري" ومجلة الفنون لصاحبها "داود أفندي" وقد حملت هذه  
الصحف لمحات من الروح الثقافية التي كانت سائدة بين المثقفين في ذلك  
الوقت ، وعبرت إلى حد كبير عن المشاكل والقضايا التي تشغلهم وأسهمت  
بشكل واضح في تطوير الحركة الثقافية في البلاد .

وفي جيود الوالي حافظ باشا الذي شهد تطور التعليم في عهده دفعة  
كبيرة إلى الأمام فأسس دارا للمعلمين ، ومدرستين كبيرتين ، ومدرسة  
للبنات ، وإلى جانب ذلك فقد أسس العديد من المدارس الابتدائية في بعض  
المناطق الليبية .

ولم تقتصر مظاهر الحياة الثقافية والعلمية على الولاة العثمانيين بل  
قامت إيطاليا بإنشاء العديد من المدارس وتمويلها فأنشأت مدرسة فنية تجارية  
عالية ، ومدرستين ابتدائيتين واحدة للبنين ، وأخرى للبنات ، وزويزة أطفال  
للبنين وأخرى للبنات ، وكانت للجالية اليهودية أيضا مدارسها .

وهكذا يتضح أن كل محاولات الدولة العثمانية لتنظيم شئون ليبيا لم  
تؤت كلها بالمرجو منها ويرجع ذلك لعدة أسباب نذكر منها :



١- أن العثمانيين سيطروا على المناطق الساحلية في ليبيا ولم يهتموا بالدواخل ، وعلى هذا أهملت المناطق الداخلية ولم تلق من الحكومة العثمانية إهتماما واضحا .

٢- أن أغلب مدة الولاية العثمانية في ليبيا كانت قصيرة لذلك انشغل معظمهم بتحقيق مصالحهم الذاتية دون الاهتمام بمصالح الأهالي .

٣- كثرة الحروب الداخلية خاصة في عهد الأسرة القره مانلية وانتشار الأوبئة خاصة مرض الطاعون ، وعدم نجاح الحكومة في السيطرة عليه ، وخاصة وأن اهتمامها بالنواحي الصحية كان ضئيلا .

٤- الإجحاف في فرض الضرائب على الأهالي ، وسوء طريقة تحصيلها منهم .

هذا إلى جانب أن العثمانيين لم يتمكنوا من خلق روح الولاء لهم في ليبيا خاصة وأن أهل ليبيا تمسكوا بالروح العربية بدلا من الولاء للعثمانيين خاصة وأن بلادهم تعرضت للكثير من حالات النهب على يد الولاة العثمانيين والمقربين منهم ومع كل ذلك فقد استفاد أهل هذه الولايات في تقوية الحياة الدينية الإسلامية خاصة وأن الحكام العثمانيين حافظوا على المشاعر الإسلامية للمواطنين العرب المسلمين فشاركوهم في الاحتفالات الدينية ، ومراعاة الشعائر الإسلامية هذا بالإضافة إلى المحافظة على عروبة وإسلام هذه المناطق من الأطماع الصليبية .

### الفصل الثالث

#### تونس تحت الحكم العثماني

كانت تونس الخطباء مقراً للولاء العرب في المغرب ، كما مثلت دورا بارزا خلال حكم الأغالبة فالعبيدين فالحفصيين .

وبعد أن أدار الفلك دورته ، وكثر الزمن عن أنيابه تتنازع تونس الفوضى ، وأصبح الضعف والتفكك السياسي إحدى سماتها البارزة خاصة بعد اعتلاء "محمد بن الحسن الحفصي" العرش في عام ٨٩٩هـ / ١٤٩٣م حيث خرجت مدينة القيروان والعديد من المدن من تحت سيطرته ، وفي أعقاب وفاته تنازع الإسبان والعثمانيون السيطرة عليها ، وتمكن الإسبان من الاستيلاء على بعض ثغورها .

وبعد أن دخلت الجزائر في حوزة العثمانيين كان من الضروري أن تكون وجهة الأسطول العثماني تونس لتكون كقاعدة عمليات إضافية للعثمانيين خاصة وأن الإمبراطور شارل الخامس ملك إسبانيا كان قد تحالف مع فرسان القديس يوحنا في مالطة وطرابلس ضد المسلمين .

ونتيجة لذلك رأى السلطان سليمان القانوني أنه من أجل تأمين قواعد قواته في البحر المتوسط ، وترسيخ وجودها في الجزائر لابد من السيطرة على تونس ، وشجعه على ذلك أن أحد المطالبين بعرش الحفصيين في تونس قد لجأ إلى الأستانة طالبا المساندة العثمانية لاستعادة عرشه . وبعد أن هبأ السلطان الأمر لذلك استدعى "خير الدين بربروسا" إليه في إسطنبول في عام ٩٤٠هـ / ١٥٣٣م ، وعهد إليه بإعداد العدة لفتح تونس واسترجاعها من أيدي الإسبان ، وتحويلها إلى ولاية عثمانية قبل أن يسبقه الإمبراطور شارل

الخامس في الاستيلاء عليها . وفي أعقاب حصول بربروسا على الدعم الكامل والإمدادات اللازمة من السلطان توجه بالأسطول العثماني المؤلف من ثمانين سفينة وثمانية آلاف جندي إلى منطقة "بنزرت" في غرب تونس حيث حظي هناك باستقبال طيب من الأهالي ، ومن "بنزرت" توجه الأسطول العثماني إلى منطقة "خلق الوادي" في عام ٩٤١هـ / ١٥٣٤م ودخل "خير الدين" قواته إلى العاصمة التونسية التي تركها حاكمها "الحسن الحفصي" وفر هاربا مستنجدا بأعراب الصحراء . وفي أعقاب ذلك أعلن "خير الدين" نهاية حكم الحفصيين ، كما أعلن تبعية تونس للدولة العثمانية ، ووجوب الطاعة له بحكم كونه ممثلا للسلطان العثماني مما قلب موازين الأمور ، وزاد من حدة الصراع الحربي بين العثمانيين والإسبان الذين كانوا يدركون أهمية تونس العسكرية ، وتحكم موافقها في المواصلات البحرية في منطقة البحر المتوسط، وتوسطها بين الجزائر وطرابلس ، وقربها من إيطاليا ، ومجاورتها لجزيرة مالطة . ومع كل ذلك فإن الأمر لم يستقر لخير الدين تماما فسرعان ما واجه العديد من المشاكل من أهالي تونس الذين تمردوا عليه نتيجة للتنظيمات التي أدخلها في بلادهم . ومن أجل حفظ النظام والأمن وزع "خير الدين" قواته في كافة أنحاء البلاد . وبينما كان "خير الدين" يوطد سلطانه في تونس لجأ "الحسن الحفصي" إلى "شارل الخامس" ملك إسبانيا طالبا العون ضد "خير الدين" والعثمانيين . وقد استجاب "شارل الخامس" لمساندة "الحسن الحفصي" ، وكلف قواته بوضع الخطط العسكرية للاستيلاء على تونس واستعادة التحكم في المواصلات البحرية في البحر المتوسط .

وفي ذي القعدة ٩٤١هـ / مايو ١٥٣٥م أقلعت حملة عسكرية من برشلونة مكونة من ٤٥٠ سفينة ، ٢٦٥٠٠ رجل ، واتجهت إلى تونس حيث انضم إليها "الحسن الحفصي" بثمانية آلاف رجل وعلى الرغم من المقاومة الشديدة التي واجهتها قوات شارل فقد تمكنت من الاستيلاء على تونس ، مما اضطر "خير الدين" إلى الانسحاب إلى الجزائر .

وبعد أن دخل "الحسن الحفصى" مدينة تونس أباح البلاد لعمليات السلب والنهب والانتقام لمدة ثلاثة أيام ، وفى أعقاب ذلك وقع "الحسن الحفصى" مع شارل الخامس معاهدة تخطى خلالها عن "حلق الوادى" و"قرطاجنة" و"مدن عنابه" و"بنزرت" و"المهدية" للإسبان ، كما منحهم حق الإقامة والتجارة وممارسة شعائرهم الدينية دون أى تضيق .

وبذلك أصبحت تونس تحت السيادة الإسبانية المطلقة ، وتولى "الحسن الحفصى" حكمها باسم شارل الخامس مما كان له أثره السلبى لدى العثمانيين ومجاهدى شمال أفريقية .

وقد رد "خير الدين" على ذلك بغارة مفاجئة على "جزر البلياز" واستولى منها على ستة آلاف أسير وعاد بهم إلى قاعدته فى الجزائر .

وخلال ذلك ثار أهالى تونس على بنى حفص لتواطئهم مع "الإمبراطور شارل الخامس" واندلعت عدة ثورات داخلية ضدهم اضطرب بعدها "الحسن الحفصى" إلى الرحيل عن تونس طالبا المساعدة من أوروبا ، وفى هذه الأثناء ظهر قائد بحرى من العثمانيين هو "درغوث باشا" واستطاع أن يتخذ من طرابلس قاعدة عسكرية من قواعد الجهاد الدينى البحرى فى شمال أفريقية ، واستولى على ميناء قفصة فى عام ١٥٥٦م وتوغل فى الداخل حتى وصل القيرون واحتلها ، وأقام فيها حامية فى عام ١٥٥٨م . ولكن ظل الإسبان يسيطرون على سواحل تونس بمعاونة عملائهم من الحفصيين .

وخلال ذلك رأى السلطان سليمان القانونى ضرورة الاستيلاء على مالطة نظراً لأهميتها فى الصراع العسكرى بين العثمانيين والإسبان حول تونس ، فأرسل أسطولاً ضخماً يحمل ثلاثين ألف جندى تحت قيادة "مصطفى باشا" لمحاصرة الجزيرة ، ولكنه لم يتمكن من دخولها . فبعد حصار أربعة أشهر تكبد العثمانيون خسائر كبيرة فى الرجال والعتاد ، وارتدوا على أعقابهم .

واستمرت الأحوال في تونس كما هي حتى تولى "علج علي" أريكة الحكم في الجزائر فقاد حملة لتخليص تونس من الحكم المتعاون مع الإسبان نجح خلالها في هزيمة القوات الحفصية ودخول تونس في نهاية عام ٩٧٧هـ / ١٥٦٩م حيث أخذ البيعة للسلطان العثماني .

ونظرا لأهمية موقع تونس عمل "علج علي" على تقوية حاميتها قبيل مغادرته لها فترك بها جيشا مكونا من خمسة آلاف رجل موزعين على عدة كتائب سميت بالأوجاق يحكمها جميعا قائد باسم "أوجاق باشي" كما تم تعيين القائد "رمضان" حاكما عاما لتونس ، وبعدها غادر "علج علي" تونس متوجها إلى الجزائر في رمضان ٩٧٩هـ / ١٥٧٠م .

وبعد معركة ليبانتو البحرية ٩٧٩هـ / ١٥٧١م التي هزم فيها العثمانيون ودمر أسطولهم مارعت إسبانيا للاستيلاء على تونس ونجحت في ذلك خاصة وأن حاميتها كانت قليلة العدد بالنسبة للقوات الإسبانية ، كما استباح الإسبان "جامع الزيتونة" ونهبوا خزائن الكتب الموجودة به . ونتيجة لذلك أرسلت الأسبانية أسطولا مكونا من ثلاثمائة مركب مشحونه بالجنود ، لاستعادة تونس وإحياء روح الجهاد بين أهلها .

وقد تمكن "سنان باشا" والقيطان "علج علي" من استردادها في عام ١٥٧٤م ، وإبادة الحامية الإسبانية هناك ، وإنهاء حكم الحفصيين المتعاونين معهم . وبذلك استطاعت الدولة العثمانية تحرير تونس من الإسبان ، وإعادتها إلى رحاب الكتلة الإسلامية .

وقيل أن يغادر "سنان باشا" تونس عمل على تنظيم شئونها ؛ وكان من أهم تنظيماته توفير قاعدة عسكرية تتمركز بها فترك أربعة آلاف جندي إنكشاري ممن كانوا برفقته لحماية هذه البلاد ، كما كون فيها إدارة كانت فرقة الإنكشارية مدار قوتها ، وأعضاؤها من المجلس الذي يرأسه الباشا ممثل الدولة العثمانية يساعده ديوان استشاري مكون من كبار الضباط

والمستولين ، وعلى رأس كل هؤلاء الباشا الذى كان يطلق عليه الأغا أو الباي وبعد أن نظم "سنان باشا" أمور تونس غادرها إلى استنبول ومنذ ذلك التاريخ تتابع على حكم تونس عدد كبير من البايات كان أشهرهم "عثمان باي" الذى حاول للنهوض بالبلاد و"يوسف باي" الذى نهض بالنواحي التعليمية .

وظلت تونس يحكمها الولاة حكما مباشرا ، ويوارثها أبناؤهم أحيانا وخلال الربع الأخير من القرن السابع عشر وأوائل القرن الثامن عشر شهدت ولاية تونس اضطرابات ناتجة عن التناقص بين القادة على الاستئثار بالسلطة، وزاد من هذه الاضطرابات قيام حرب بين ولايتي تونس والجزائر ثم التنازع على الحكم فى تونس واستجداد أفراد الأسرة المرادية بالجزائريين .

وفى وسط هذه الاضطرابات تمكن "حسين بن على" أحد رؤساء الجند من الاستيلاء على الحكم فى عام ١٧٠٥م وتأسيس الأسرة الحسينية التى حظيت بترحيب الأهالي وقواد الجند . وقد استطاع "حسين بن على" أن يعيد هبة الحكومة، ويقضى على نفوذ العصبية المسلحة ، وأنشأ جيشا قويا .

وتصرف البايات الحسينيون كمستقلين فى شئونهم عن الدولة العثمانية، فعدتوا المعاهدات وأعلنوا الحرب دون الحصول على موافقة السلطان ، واكتفى السلطان بالولاء الإسمى وبالذعاء له فى المساجد خلال خطبة الجمعة وضرب السكة باسمه .

وفى أوائل القرن التاسع عشر بدأت الدول الأوروبية تعقد مع تونس علاقات تجارية وسياسية ، وأخذ البايات يسبغون فى طريق الإصلاح .

ونتيجة لبذخ بعض البايات وانغماسهم فى الترف ومحاولة ظهورهم بمظهر الحكام العصريين واجهت تونس مصاعب مالية ، وتراكمت الديون عليها . وعلى سبيل المثال نذكر أنه فى عصر "أحمد باي" ١٨٣٧-١٨٥٥

أنفق الكثير من الأموال في بعض المشروعات العمرانية والإصلاحات ، وفي عمليات البذخ والترف واقتناء التحف مما أدى في نهاية الأمر إلى التوسع في الاستدانة ، ووقوع تونس فريسة في أيدي الدول الأوروبية وإحكام الأجانب في شئون البلاد الداخلية بحجة القيام بالإصلاحات التي أرادها الباي ، وإجبارها على إصدار ما يسمى "بعهد الأمان" الذي أعطت معظم نصوصه مزايا عديدة للأجانب منها حق العمل والملكية في تونس . حقيقة أن هذا العهد شمل في نصوصه العديد من المنافع ، ولكن ضرره على التونسيين كان أكثر من نفعه .

ويعد أن قزرت فرنسا الاحتفاظ بالجزائر ازداد عزمها على احتلال تونس رغبة منها في منع قيام نظام في تونس يهدد إحتلالها للجزائر . وقد شجعها على ذلك تأييد كل من ألمانيا وبريطانيا لها . فقد رغب المستشار الألماني "بسمارك" في إبعاد فرنسا عن التفكير في هزيمتها في الحرب السبعينية وصرف أنظار الفرنسيين عن الأكراس واللورين ، وعن فكرة الانتقام لهزيمتهم بتأييد جهود فرنسا الاستعمارية خارج أوروبا .

أما عن إيطاليا فإنها اعترضت على تغلغل النفوذ الفرنسي في تونس وقاومته، وبدأت حملة دعائية قوية ضد فرنسا خاصة وأن تونس كانت محط أنظار الإيطاليين خاصة وأن هناك معاهدة بين إيطاليا والباي عقدت في عام ١٨٦٨ كان من أهم بنودها صون مصالح الإيطاليين في تونس والاحتفاظ بجنسيتهم هناك يضاف إلى ذلك أن المسافة بين صقلية الإيطالية وتونس لا تزيد على سبعين ميلا .

ولما بدا لفرنسا ضرورة الإسراع لاحتلال تونس بحجة أنها إمتداد طبيعي للجزائر ، اتخذت من عبور القبائل التونسية لحدود الجزائر ذريعة لضم تونس إليها . فأرسلت قواتها في مايو ١٨٨١ إلى قربة العاصمة التونسية ، وأعلنت أن غرضها هو إقرار النظام ، ولكنها ما كادت تصل إلى

العاصمة حتى أجبرت الباي على عقد "معاهدة باردو" في ١٢ مايو ١٨٨١ والتي أعلن الفرنسيون في أعقابها الحماية على تونس بحجة المحافظة على الأمن ورعاية حسن الجوار . وإلى جانب ذلك فقد كبلت فرنسا تونس بالأغلال وأصبح المقيم الفرنسي في تونس هو صاحب الكلمة العليا ، وتولت فرنسا تمثيل تونس ، ورعاية مصالحها في الخارج .

وقد شملت الحماية الفرنسية جميع المرافق في تونس ، فانتشر الموظفون الفرنسيون في المراكز الحكومية بتونس كما تحولت الكثير من الأراضي الزراعية إلى إقطاعات تمنح للمستوطنين الفرنسيين ، وإلى جانب ذلك قام الفرنسيون بتجنيد المواطنين التونسيين وإعطائهم الجنسية الفرنسية ، كما حاولوا قطع صلاتهم الثقافية بالعالم العربي ، وبحضارتهم الإسلامية وذلك بتأسيس نظام تعليمي يقتلع الشبان من جذورهم الثقافية . ونتيجة لذلك بدأت الحركة الوطنية في تونس في شكل حركة إسلامية ، وكانت "مدرسة الزيتونة" معقلا لمقاومة السياسة الفرنسية ، كما بقي مسجدها حاربا للسلطات العربية الإسلامي بالإضافة إلى أنه ظل مركزا ثقافيا ودينيا .

وظلت فكرة تقوية الروابط مع الجامعة الإسلامية التي كان يرددها السلطان العثماني "عبد الحميد" ملتقى أفئدة التونسيين ، ثم تبلورت الحركة الوطنية بعد ذلك حتى اضطرت فرنسا إلى الجلاء عن تونس والاعتراف باستقلالها في ١٧ مايو ١٩٥٦ .

#### نظام الحكم العثماني في تونس :

تمت أول محاولة لتنظيم إدارة تونس على يد "سنان باشا" عقب فتحها عام ١٥٧٤م ، وكان قاعدة هذه التنظيمات هو الجيش الإنكشاري . فقد ترك سنان باشا أربعة آلاف جندي إنكشاري في تونس لحمايتها ، وأسند حكمها إلى باشا تابع للجزائر بلقب أمير الأمراء . وكان "حيدر باشا" أول أمير لأمراء تونس وكان يسأله ديوان للمشورة . كما استحدث "سنان باشا"



منصب أمير اللواء بهدف حفظ الأمن ، وعين قاضيا للأحكام الشرعية ، كما عين جانبيا بلقب بالباي .

وإلى جانب ذلك فقد قسمت تونس إلى ولايات ومناطق عسكرية عين على رأس كل منها ولاية عسكريون . ولكن هذا النظام لم يستمر طويلا فمرعان ما سيطر الجند على الأمور ، وقاموا بذبح أعضاء الديوان وإنهاء حكم أمير الأمراء ، واستحدث نظام الدايات الذي استمر قائما في تونس حتى عام ١٦٤٤م ، وبعدها استطاع أحد حكام الأقاليم وهو "مُراد بك" أن يخضع حكومة الداي لنفوذه ويقوم بتأسيس "الأسرة المرادية" وأن يحصل على لقب باشا من الباب العالي . وقد ظلت هذه الأسرة تحكم تونس حتى عام ١٧٠٢ حتى تمكن "حسين علي" أحد ضباط الإنكشارية من القضاء على هذه الأسرة ، وتأسيس "الأسرة الحسينية" التي بدأ حكمها في عام ١٧٠٥ واستمر حتى عاصر مرحلة الاحتلال الفرنسي لتونس ، ومما يذكر لهذه الأسرة أنها حافظت على الطابع العثماني في الحكم ، من حيث الاعتماد على طبقة الإنكشارية ، واتخاذ المذهب الحنفي مذهباً رسمياً بدلاً من النظام المالكي الذي يتبعه معظم الأهالي .

وعن موارد الدخل في تونس وطرق الصرف منها ، فلم تفرض الدولة العثمانية على تونس أموالاً تدفع لخزينتها كما كان يحدث مع باقي الولايات ، بل كان كل ما يفرض عليها هو إرسال كمية من الزيت بقصد إنارة المسجد الكبير في الجزائر .

وكانت الضرائب التي تجبي من الأهالي تستخدم في الصرف على مصالح الولاية ، وعلى أوجه الإنشاء والتعمير والرواتب والمخصصات ، وتجهيز الحملات .

### مظاهر الحياة الاقتصادية في تونس خلال الحكم العثماني :

تمثلت هذه الحياة فيما يقوم به السكان من أعمال للزراعة والصناعة والتجارة وبصورة عامة يمكن القول أن تونس كانت تعتمد على الزراعة أكثر من غيرها من الولايات الأخرى خاصة وأن طبيعتها المناخية وتربتها الصالحة للزراعة قد ساعدت على ذلك . وقد ارتبطت الزراعة في تونس بطبيعة ملكية الأرض وتقسيمها فكان هناك الأراضي الخصبة المحيطة بالمدن ، وكان هناك الأراضي التي تصدر من القبائل وتمنح لكبار الموظفين كما كان هناك الأراضي التابعة لقبائل معينة تمارس فيها نشاطها الزراعي والرعي .

وكانت الحبوب والخضر والفواكه أهم منتجات تونس وقد ساهمت هذه المحاصيل بنصيب كبير في حركة التجارة الداخلية والخارجية . فقد نشطت حركة التجارة بين الولايات المغربية وبعضها البعض . وبالنسبة للصناعة فقد تميزت تونس بصناعة المنسوجات الحريرية والنقش على الرخام والجبس .

### مظاهر الحياة العلمية والثقافية في تونس خلال الحكم العثماني :

شهدت تونس خلال العصر العثماني نفس المظاهر التعليمية والثقافية التي كانت موجودة قبله ، فقد تم الاهتمام بعلوم القرآن والفقه والسنن النبوية والأدب والنحو والصرف وكان لجامع الزيتونة اليد الطولى في ذلك . كما شهدت هذه الفترة انتقال العلماء من منطقة لأخرى .

وكان نظام الكتاتيب النظام السائد خلال هذه الفترة وكان التلاميذ يتلقون فيه العلوم الدينية وأصول النحو واللغة العربية .

وكان يطلق على الكتاب في المناطق الحضرية كلمة مسيد \* وهي تحريف لكلمة مسجد ، وكان يوجد ذلك "المسيد" قرب الجامع وأحيانا يكون

جزءاً منه . ويوجد كل من المسجد والمسجد في كل حي عند نهاية الشارع ونقاطع الطرق ، ويكون على مكان مرتفع نظراً لرفعه شأن القرآن الذي يتعلمه التلاميذ فيه .

وإلى جانب ذلك فقد أسس الحفصيون في تونس العديد من المدارس التي ساعدت على إحياء المذهب المالكي .

ومن أبرز علماء تونس خلال هذه الفترة "الشيخ محمد بن أبي الفضل خروف الأنصاري التونسي" (ت ٩٦٦هـ / ١٥٥٨م) ومحمد بن سلامة خطيب جامع الزيتونة في تونس (ت ٩٩٣هـ / ١٥٨٥م) .

## الفصل الرابع

### العثمانيون ومراكش

-----

إن مراكش ذلك القطر العربي الإسلامي الذي يحرس الجناح العربي في الغرب من الوطن العربي تسلمت زمام الحكم فيه أسرة شريفة هي الأسرة السعدية منذ أوائل القرن السادس عشر واستمرت تحكم حتى منتصف القرن السابع عشر .

وعلى الرغم من نجاح العثمانيين في الاستيلاء على الجزائر وليبيا وتونس ، وبالرغم من موقع مراكش المهم عسكريا بالنسبة للعثمانيين خاصة وأن سواحلها تطل على البحر المتوسط والمحيط الأطلنطي ، كما أنها تقترب من إسبانيا من ناحية بوغاز جبل طارق . فقد ظل هذا الإقليم بمنأى عن السيطرة العثمانية التي حاولت إدماجه في بقية أقاليمها كما حدث لبقية إقاليم العالم العربي ، ولكن مراكش استطاعت الاحتفاظ بشخصيتها الإقليمية ، ووقفت بإصرار ضد الأطماع التي هددتها سواء من جانب العثمانيين أو الإسبان لفترة طويلة وفيما يلي نعرض لأسباب ذلك .

فبعد أن تأسست دولة الأشراف السعديين في مراكش على أنقاض الأسرة الوطاسية ، وتمكنت من تثبيت أقدامها هناك التمس "أبو حسون الوطاسي" مساعدة السلطان العثماني "سليمان القانوني" الذي كان يدرك أهمية موقع مراكش ، ويرغب في وحدة شمالي أفريقيا خلال الصراع المحتدم بين المسلمين والإسبان والبرتغاليين هناك مما يعطيه نقلا عسكريا في صراعه مع الإمبراطور الإسباني "شارل الخامس" .

ونتيجة لذلك أمر السلطان العثماني بإعداد حملة لفتح مراكش بالتعاون مع "أبي حنيني الوطاسي" . وقد تمكنت هذه الحملة من دخول فاس في علم ١٥٥٤م وإعادة حكم الأسرة الوطاسية على مراكش تحت السيادة العثمانية ، ولكن ذلك لم يستمر سوى بضعة أشهر حيث استطاع "محمد المهدي السعدي" استرداد فاس من العثمانيين .

ونتيجة لإصرار السعديين على عدم الاتضواء للسيادة العثمانية أمر السلطان سليمان القانوني بإرسال حملة لاستعادة فتح مراكش ، وقد عيّنت قيادة هذه الحملة إلى "صالح ريس" وكان من المتوقع أن تستقر الأمور للعثمانيين هناك خاصة وأن السلطان العثماني سليمان القانوني كان يهدف إلى جمع الصف الإسلامي لتصفية الجيوب الصليبية في مراكش وفي دخول الدولة السعدية في تبعية الدولة العثمانية طوعا ، ولكن السعديين رفضوا الاعتراف بخلافه السلطان العثماني على أساس أن العثمانيين ليسوا عربا وإنما هم أعاجم ، وبأن الشرافة في مراكش يجب أن تكون لهم خاصة وأنهم يعتزرون بنسبهم إلى الرسول وزداد تطلع الباب العالي إلى ضم المغرب الأقصى بعد التناقص على عرش السعديين بعد وفاة "عبد الله الغالب بأشع السعدي" (في رمضان ٩٨١هـ / يناير ١٥٧٤) وتواجد بعض المطالبين بهذا العرش بالآستانة ، ولكن انشغال الدولة العثمانية بالاستعدادات لفتح قبرص ، ولجوء أعداء العثمانيين في المغرب إلى سياسة التقرب من دول أوروبا الغربية قد حال دون ذلك .

وبعد معركة وادي المخازن في ٣٠ جمادى الأول ٩٨٦هـ / ٤ أغسطس ١٥٧٨ التي انتصر فيها "عبد الملك السعدي" على القوات الإسبانية إعتزفت الدولة العثمانية بسيادة السعديين على المغرب الأقصى ، وتوقفت عن فكرة التدخل المباشر في المغرب ، كما حفظت الدولة السعدية للعثمانيين الود ، وتبادل الطرفان الرسائل التي تدل على حسن علاقات الجوار بينهما .

وقد حرص السعديون على مواصلة الجهاد البحري ضد القوى الصليبية المتحالفة ضد المسلمين ، وكان استرداد المدن المغربية من تلك القوى المعادية هي بداية حركة الجهاد التي رحب بها العثمانيون . فقد اتبع "أحمد المنصور" الذي حكم المغرب في الفترة من ١٥٧٨-١٦٠٣ سياسة الجهاد الإسلامي لمواجهة تقدم البرتغاليين على الشواطئ الأفريقية ، وذلك بنشر الإسلام بين الأفارقة ومد نفوذ دولته من حوض نهر السنغال حتى نهر النيجر . وقد نشأت في تلك الجهات حكومة تحتفظ بالولاء الإسمي لسلطان المغرب استمرت حوالي قرنين من الزمان .

وقد حاول "أحمد المنصور" في حركة الجهاد البحري ضد القوى الأوروبية المعادية أن يضرب القوى الأوروبية ببعضها فحاول التحالف مع إنجلترا وهولندا ضد إسبانيا ولكنه لم ينجح في مسعاه وإن كان قد نجح في عقد معاهدات معها لتنظيم حركة الملاحه والتجارة .

واستمر الجهاد الإسلامي في المغرب الأقصى في عهد أسرة الأثوايف العلويين الذي بدأ عام ١٦٦٦ ضد القواعد الإسبانية والبرتغالية في الأراضي المغربية فتم استرداد مدن "المهدية" و"العرائش" و"أصيلة" أواخر القرن السابع عشر واسترداد ميناء "طنجة" ومدينة "مزاغان" من يد البرتغاليين . وبالنسبة للدول الأوروبية التي لم تجاهر المسلمين العداء فعقد حكام المغرب معهم معاهدات تجارية، فقد تعاهد المولى محمد بن عبد الله - الذي استمر حكمه للمغرب من عام ١٧٥٧ إلى عام ١٧٩٣م - مع دول شمال أوروبا ومع الولايات المتحدة الأمريكية عام ١٧٨٦ ، كما توسط لدى حكام تونس وطرابلس الغرب حتى تمتنع سقنها عن مهاجمة سفن الولايات المتحدة واستمرت الأمور على ذلك حتى حدث الغزو الفرنسي للجزائر في عام ١٨٣٠ وبرز التفوق البحري الفرنسي في الحوض الغربي للبحر المتوسط مما دفع بأنصار الجهاد البحري الإسلامي في المغرب إلى الانزواء .

وانتهى الأمر بقيام إنجلترا بعقد معاهدة مع الغرب فى عام ١٨٥٦ تضمنت نصوصها الحرص على تأمين الملاحة فى البحر المتوسط ، والقضاء على عمليات الجهاد البحرى المغربى التى كانت تتركز نشاطها عند سواحل الريف . وزاد الأمر سوءا نجاح البحرية الإسبانية فى القضاء على السفن المغربية ، والاستيلاء على مدينة تطوان . ومنذ ذلك الوقت تزايدت الأطماع الأوربية فى المغرب حتى تم احتلال فرنسا لها فى عام ١٩١٢ .

## الخاتمة

مما سبق يتضح أن الحكم العثماني لأقطار شمال أفريقيا الثلاثة الجزائر - طرابلس الغرب - تونس لم يكن كله إيجابيا ولا كان كله سلبيا . فقد استفادت هذه البلاد من الحكم العثماني خلال مواجهتها للخطر الإسباني المتحالف مع فرسان القديس يوحنا في مالطة ، واستفادت من تأخير الغزو الاستعماري الأوربي لها عندما كانت الدولة العثمانية قوية ، كما استفادت من بقاء أفكاره القومية ومقوماتها في النفوس خاصة وأن العثمانيين أبقوا أوضاع هذه البلاد كما هي ولم يقوموا بتتريكها ، كما حافظوا على النظام الاجتماعي بها ، بينما لم تستفد هذه البلاد حضاريا من الحكم العثماني خاصة وأن العثمانيين لم يكن لديهم رصيد حضاري يقدموه للحياة العلمية في الولايات العربية التي كانت تتمتع بحضارة تفوق ما لدى العثمانيين من حضارة وبالنسبة لضعف نظام الإدارة في هذه البلاد خلال الحكم العثماني فقد كان لبعيد المسافة التي تفصل بين تلك الولايات وعاصمة الدولة أكبر الأثر في عدم إحكام الدولة لقيضتها الإدارية على هذه البلاد ، وفي عدم تمكنها من حسم الصراع الذي كان كثيرا ما يحدث بين أفراد الأسر الحاكمة بل كانت تقوم بتسكين الأمور بدلا من حسمها .

وبالرغم من ذلك فقد اعتبر أهل شمال أفريقيا الدولة العثمانية بمثابة الإنقاذ الإلهي الذي جاء لمساندتهم في مجابهة الإسبان وفرسان القديس يوحنا الذين قاموا بالإساءة لدينهم ووطنهم .

وبالنسبة لحركة الجهاد البحري الإسلامي فقد أوضحت هذه الدراسة أنها لم تكن حركة قرصنة كما يدعى البعض خاصة وأنها كانت تهدف للدفاع عن النفس ضد قوى صليبية هي في حالة حرب معها ، وأنها كانت ردا على ما فعله الإسبان ضد مسلمي الأندلس ، وردا على ما فعله البرتغاليون ضد



البحرية الإسلامية في أعقاب معركة ديو البحرية ١٥٠٩م والذين أثبتوا خلالها روحهم العدائية لكن ما هو مسلم ومن هذا المنطلق كان لابد لأقطار المغرب العربي من اتخاذ الحذر والحيلة ، وإعلان الجهاد الإسلامي ضد أعداء الإسلام خاصة الإسبان ، والبرتغاليين ، وفرسان القديس يوحنا ، وكان لابد من دخول العثمانيين إلى هذه الحلقة لإعادة عملية التوازن بين المسلمين والصليبيين . يضاف إلى ذلك أن الوجود العثماني في ولايات شمال أفريقيا لم يكن وجودا عسكريا غصيب بل ترك ملامحه في نظم الإدارة وأنماط حياة السكان وغيرها .

## ثبت المصادر والمراجع

فيما يلي أسماء بعض المصادر والمراجع التي استعنا بها في وضع هذا الكتاب . نذكرها ليفيد منها من يرغب في متابعة هذه الدراسة بشئ من التفصيل .

### أولا : العربية :

- أحمد عزت عبد الكريم : دراسات في تاريخ العرب الحديث ، بيروت ، ١٩٧٠ .
- أحمد صدقي الدجاني : ليبيا قبيل الاحتلال الإيطالي أو طرابلس الغرب في أواخر الحكم العثماني الثاني ١٨٨٢-١٩١١ القاهرة ، ١٩٧١ .
- أرجمند كوران : السياسة العثمانية تجاه الاحتلال الفرنسي للجزائر - ترجمة عبد الجليل التميمي - تونس ، ١٩٧٤ .
- خليفة التليسي : حكاية مدينة ، طرابلس لدى الرحالة العرب والأجانب ، ليبيا ، طرابلس ١٩٧٤ .
- رافقت الشبيح : تاريخ العرب الحديث ، القاهرة ١٩٩٤ .
- عبد العزيز الشناوي : الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها - ٢ القاهرة ١٩٨٠ .
- عبد الكريم كريم : المغرب في عهد الدولة السعدية ، الرباط ، ١٩٧٧ .

- عبد المنعم الجميعي : العثمانيون في الميزان الإسلامي والعربي ، القاهرة ، ١٩٩٥ .
- محمد جميل بيهم : أ- الحلقة المفقودة في تاريخ العرب ، القاهرة ، ١٩٥٠ .
- ب- فلسفة التاريخ العثماني . كيف نشأت وارتقت الدولة العثمانية ، بيروت ١٩٢٥ .
- محمد خير فارس : تاريخ الجزائر الحديث من الفتح العثماني إلى الاحتلال الفرنسي ، بيروت ، ١٩٧٩ .
- مرفت سرمداح : الجهاد العثماني لإنقاذ بلاد المغرب العربي ١٥١٨-١٥٧٨ رسالة ماجستير غير منشورة كلية البنات - جامعة عين شمس ، ٢٠٠٠ .
- نيقولا زيادة : ليبيا من الاستعمار الإيطالي إلى الاستقلال القاهرة ، ١٩٥٨ .

ثانيا : الأجنبية :

- Gibb and Bowen : Islamic Society and the West. London 1960 .
- Show (S) : History of the the Ottaman Empire and Modern Turkey, London 1977 .

## موقف الدولة العثمانية من الثورة العراقية

دكتور عبد المنعم ابراهيم الدسوقي الجيمي  
كلية التربية - جامعة القاهرة

### مقدمة :

وجدت الدولة العثمانية في قيام الثورة العراقية والنزاع المستمر بين الخديو والعراقيين فرصة للتدخل في شئون مصر الداخلية بحجة فض النزاع وإقرار الأمور ، ومع أن السلطان عبد الحميد الثاني وجد في الثورة فرصة للانتفاص من مزايا الاستقلال الداخلي الذي حصلت عليه مصر فإنه أثار التريث في الانضمام إلى أي من الطرفين ، ورغم أنه لم يكن مرتاحاً للحركة الوطنية المصرية لأنه كان يخشى انتشار مفهوم الثورة منها إلى باقي ولايات دولته نظراً لموقع مصر الجغرافي في وسط ممتلكاته بالإضافة إلى أن الثورة العراقية طرحت مفاهيم تستكرهها الدولة العثمانية كل الاستنكار مثل الدعوة إلى النظام النيابي وفكرة توزيع الأرض على الفلاحين إلا أنه حاول اللعب على الطرفين والوقوف مع الجانب الذي ترجح كفته في النزاع فكانت هناك اتصالات بين رسله وبين عرابي كما كانت هناك اتصالات بينه وبين الخديو ، ورغم أن الخديو قد أرسل إلى السلطان يطلب إرسال قوات تركية إلى مصر للقضاء على الثورة فإن السلطان خشي من رد فعل الدول الأوروبية خصوصاً وأن خبرة الدولة العثمانية في الصدام مع الدول الأوروبية منذ مؤتمر برلين جعلتها تتردد في انتهاك هذه الفرصة .

ومن الطبيعي أن يكون حجر الزاوية بالنسبة لكتابة هذا الموضوع

هو الوثائق التركية لذلك فقد رجعت الى الوثائق التركية المترجمة الى العربية والموجودة بدار الوثائق بالقلعة تحت عنوان ملف ثابت باشا المحفوظات ١٦٣ ، ١٦٤ عابدين ، ومحفوظة ١١٦ ايحاك ، ودفتر ٢٨٧ عابدين بالإضافة الى محافظ الثورة العربية وبعض المراجع الأخرى .

وملف ثابت باشا يحتوى على الكثير من الوثائق الخاصة بالثورة العربية ووجهت نظر الدولة العثمانية تجاهها .

وثابت باشا كان يعدل مندوبا للخدو بالاستقامة أثناء قيام الثورة العربية وتفكره الوثائق بأنه « تبرأ من الخدو بالحضرة الخديوية بالاستقامة » . ومجوز الموضوع الرئيسي يدور حول الرسائل المتبادلة بين الخديو والباب العالي والتي يتضح منها :

١ - موقف الدولة العثمانية من الثورة العربية بعد مظاهرات عابدين وبعثه نظامي باشا .

٢ - موقف الدولة العثمانية من المؤامرة الجركسية .

٣ - بعثة درويش باشا حتى منشور السلطان بإعلان عصيان أحمد عرابي .

حاولت الدولة العثمانية استغلال أحداث الثورة العربية لتثبيت سيادتها على مصر والانتقام من مزايا استقلالها الذي نالته في عهد محمد علي ثم في عهد إسماعيل ، ومع أن الخديو توفيق قد ساعدها على أن تنقش من هذه المزايا بطلبه إرسال قوات تركية الى مصر لقمع الثورة العربية وكان في ذلك فرصة لها لتحقيق أغراضها إلا أنها لم تستغل هذه الفرصة فأنشأ قيام مظاهرة عابدين في ٩ سبتمبر ١٨٨١ أرسل الخديو ثلاث برقيات الى الباب العالي تتضمن الحادث ولكن بصورة مختصرة من غير أن يوضح فيها الأسباب الحقيقية له والمبعث عليه مكتفياً باستناد قيام الثورة الى «سلطان برقية « أميرالاي » (١) . يمكن من استمالة الجيش المصري اليه وأحاط « بتعزيز من معظم ذلك الجيش بقصر عابدين . . وضرب الحصار حوله » (٢) وتدد طلب الخديو « إرسال قوة عسكرية يبلغ مقدارها عشرين مائتة على جناح السرعة على أن

تكون تبنائها العناية منوطة به خاصة « (٧) ولما كان الباب العالي يخشى رد فعل الدول الأوروبية وخصوصا إنجلترا لو تدخل عسكريا في مصر ، بالإضافة الى ان الخديو توفيق لم يكن منظورا اليه في الاستانة بعين العطف والرضا (٨) فقد ارسل الباب العالي يطلب معلومات أكثر وضوحا عن الحادث حيث ذكر في برقية له الى الخديو « وبما انه ليس من المحتمل قط ان لا يكون لديكم انباء عن ظروف وملابسات تلك الثورة العسكرية تبيل اجتماع الجنود على الثورة والاحتاطة بسموكم في تصويم وتنسيق الحصار عليه فضلا عن ان حكومتكم لا بد لها من علم بالظروف والأحوال التي ساعدت على تكوين هذا الحادث .. فزاء ذلك لا يسع الباب العالي ان يقوم باى سعى لاعادة الأمن الى مصليه وتسوية المسألة وفق الاعتبارات المحلية مالم يحصل أولا على المعلومات الوثيقة من سموكم لتجلو الأحوال جلاء تاما » (٩) .

وكان رد الخديو على هذه البرقية قوله : « ان الحكومة لم يكن عندها اى نيبا او علم سابق بهذا الموضوع ، وكل ما هنالك اننا نعلم ان هناك صحيفة تدعى ( ايو النظارة الزرقاء ) يصدرها في باريس باللغة العربية العامية رجل يدعى ( جيس ) (١٠) له اتصال وثيق بطبيب على سمو عبد الحليم باشا وان آلافا من اعداد هذه الصحيفة تدخل مصر بطرق مختلفة ، وتوزع سرا ومجاتا بين صفوف الجيش .. ولا يخفى على احد ان الذى ينلق بسخاء على طبع ونشر هذه الصحيفة هو سمو عبد الحليم باشا لا غير وبما ان الدعايات التي تقوم بها هذه الصحيفة والامكار التي تبثها تتفق تمام الاتفاق مع الامكار السائدة الآن في البيئات النائية والطبقات المتدنية في الجيش فيمكننا ان نقول ان لدعاية هذه الصحيفة دخلا كبيرا في قيام هذه الفتنة العسكرية (١١) ثم ذكر ان الحادث انتهى من غير حاجة الى اتخاذ تدابير شديدة نحو ازالته (١٢) ثم أكد في برقية اخرى « ان الجيش الآن في غاية الخضوع والطاعة وإن سائر الامور والشئون جارية على مايرام » (١٣) ومع ذلك فان الحكومة التركية رأت فيما حدث ذريعة للتدخل السياسى في شئون مصر وانتحال حق الاشراف عليها على الرغم من محاولات إنجلترا للتضييق على السلطان لإحالة دون ذلك (١٤) حتى يمكنها العمل منفردة في مصر - فقررت ارسال

لجنة الى. مصر للنظر في الحوادث الأخيرة ، وقد عرفت هذه اللجنة بالوفد  
العثماني وكانت برئاسة علي نظامي باشا سرياور السلطان عبد الحميد  
وعلى بك مؤاد من اعضاء مجلس شورى الدولة (١١) ونجل عالي باشا  
المسمر الأعظم المشهور ومعهما تدرى بك وصفر افندي وسيف الله  
افندي من ياوران السلطان .

يذكر الأستاذ عبد الرحمن الراجعي في كتابه « الثورة العربية  
والاحتلال الانجليزي » ان هذا الوفد تحرك من الاسكندرية يوم ٢ أكتوبر  
١٨٨١ تاصدا مصر ولم يسبق تأليفه مخابرة بين حكومة الاسكندرية والحكومة  
المصرية حتى تعرفت الحكومة من ابغاده (١٢) ولكن الوثائق التركية تثبت  
ان الخديو كان يعلم عن طريق مندوبه في الاسكندرية (١٣) بتشكيل الوفد  
والمهمة التي سيكلف بها (١٤)

جاء الوفد الى الاسكندرية يوم الخميس ٦ أكتوبر ١٨٨١ ووصل  
اعضاؤه الى القاهرة في مساء ذلك اليوم ونزلوا ضيوفا على الحكومة  
المصرية وفي صبيحة الجمعة ذهبوا الى سراي الاسماعيلية لمقابلة  
الخديو فاستقبلهم بالترحاب واللقوة ان القرض من حضورهم هو اظهار  
الثقة به وتثبيت مركزه (١٥) كما ذهب نظامي باشا الى ديوان الخريسة  
بقصر النيل حيث استقبله محمود سامي البارودي ناظر الجهادية وهناك  
التي خطبا في كبار الضباط حثهم فيه على طاعة الخديو (١٦) ورد عليه  
طلبه عصيت بخطاب أعلن فيه خضوع الضباط والجنود للسلطان  
والخديو (١٧) .

ولما زار الوفد العثماني شيخ الجامع الأزهر وبعض الشيوخ  
وجدوا في حديثهم اطراء على الجيش وأعماله (١٨) وظل رجال الوفد  
العثماني في مصر بضعة عشر يوما بين مقابلات وولاتم ، واجمعت كلمة  
من حادثهم على ان البلاد ليس فيها أي اضطراب وأكد لهم الخديو ان  
الجيش على طاعته وبذلك انتهت مهمتهم (١٩) وغادر الوفد القاهرة الى  
الاسكندرية في ١٨ أكتوبر ١٨٨١ (٢٠) .

والجدير بالذكر ان انجلترا وفرنسا استأثرا من حضور الوفد  
العثماني الى مصر على غير اتفاق معهما واعتبرتا تدخل في شئون مصر

الداخلية وطلبها من الحكومة العثمانية تقصير مدة اقامته (٢١) كما انتهر السير ادوارد مالت القنصل الإنجليزي الفرصة لكي تبسط بلاده نفوذها على مصر فطلب من حكومته ارسال بارجة حربية الى مياه الاسكندرية فاجابته الى طلبه كما اتفقت مع الحكومة الفرنسية على ان ترسل هي الأخرى بارجة على أن تنسافر البارجتان الاسكندرية حين مبارحة الوفد العثماني مصر ، وفعلا حدث ذلك حيث غادرت البارجتان ميناء الاسكندرية في ٢٠ أكتوبر ١٨٨١ أي غداة سفر الوفد العثماني (٢٢) .

هذا عن موقف الدولة العثمانية تجاه الثورة العربية عقب مظاهرات عابدين أما عن موقفها من المؤامرة الشركنية (٢٣) فانه بعد ان ارسل الخديو الى السلطان بخصوص هذا الموضوع وطلب منه ارشاده حول الاحكام الخاصة التي اصدرها العربيون ضد الشراكسة ويقترح عليه عدم تنفيذ الاحكام (٢٤) وقف السلطان مؤيدة لموقف الخديو ومن ذلك سرورا بالغا وتبني للخديو الخير وقال « انه طالما يظل الخديو متبها على اخلاسه الذي اظهره للدولة العلية حتى الآن .. فانه سيجد الدولة العلية مساعدة ونصيره له على الدوام » (٢٥) .

ومع ان الأحوال في مصر كانت غير مستقرة فانتظروا تبهد للتدخل العسكري والخديو يشكو للسلطان من العربيين ويطلب منه - عن طريق رسالة بعث بها الى ثابت باشا بالاسكندرية - ارسال قوات عسكرية تركية تتف امامهم بقوله « وقد راح هؤلاء الضباط ( يقصد العربيين ) يملكون للوصول الى اهدافهم بالتدريج كلما سخرت لهم الفرصة الى ان بلغوا حد السيطرة على جميع القوات العسكرية » وهم الآن خارجون عن الطاعة كل الخروج وليس لهذا الوضع من علاج سوى اخذ هذه القوات العسكرية من ايديهم وردها الى القانون والنظام وهذا يحتاج الى قوة عسكرية تتف امامهم » (٢٦) . ولكن السلطان تردد في ارسال جنود عثمانيين الى مصر خشية الصدام مع الدول الأوروبية كما ان معظم المشايخ بالاسكندرية اوضحوا للسلطان بان « ارسال عسكري المسلمين لقتال اخوانهم المسلمين يضر بمقام الخلافة » (٢٧) يضاف الى ذلك ان السيد احمد اسعد وهو من الشيوخ المقربين من السلطنة كان قد مدح عرابي امام السلطان (٢٨) وفكره بأنه الرجل الذي يرجى منه الخير لمصر .



ولمعالجة الموقف استقر رأى السلطان العثماني على إرسال بقشة إلى مصر بحجة إعادة الأمور فيها إلى نصابها ، ومعالجة الأحوال على أساس الاستفادة من الخلاف بين الخديو والعربيين ابتغاء تثبيت سلطة الدولة في مصر (٢٩) وفي الساعات من شهر يونية ١٨٨٢ عين السلطان مصطفى درويش باشا أحد رجال الحاشية السلطانية مندوبا عثمانيا ساهيا وعهد اليه برئاسة وفد مكون كما تذكر الوثائق التركية من « نجلة » وأربعة من اليساوران وكتابه الخاص ونحو تسعة من خدم المايين (٣٠) . ومجموع الذين سميائون في معيته حوالي ثلاثين نفرا ، وفوقهم سيقون في زفته حلى بك مدير مكتب تلغراف المايين السلطاني ، وأن الذين سراقفونه من يعرف اللغة العربية « (٣١) وأمره بالسفر إلى مصر » وكانت خطة الوفد أن يتظاهر درويش باشا بأنه جاء لتثبيت سلطة الخديو ، وأن يتعامل استعداد باشا أحد أعضاء الوفد مع عرابي ويوضح له رضى السلطان عنه (٣٢) .

وصل درويش باشا والوفد المرافق له إلى الاسكندرية يوم الاربعاء الموافق ٧ يونية ١٨٨٢ على ظهر اليخت السلطاني عز الدين (٣٣) فترسل الخديو وفدا برياسة على ذو الفقار باشا لاستقباله على ظهر اليخت كما أرسل عرابي من طرفه يعقوب سامي باشا وكيل نظارة الجهادية لاستقبال الوفد ، ولكن الخديو اعترض على ذلك وأبلغ محافظ الاسكندرية بعدم موافقته على إجراء أى شئ من رسوم الاستقبال من طرف العربيين للبعثة ، ولكن يعقوب باشا لم يكتف بالأمر بحجة أنه موافق من طرف نظار الجهادية لا يمنعه عن ذلك سوى أوامر منه (٣٤) فعلا تم استحضار ثلاثة قوارب احداها لوكيلي الجهادية والبحرية والثاني لحافظ الاسكندرية والثالث لمدوبى المعينة ، وساروا سويا ولكن قارب الوكيلين سبق القارين الآخرين ووصل قبلهما بمدة ربع ساعة تقريبا وعند وصولهما استقبلهما دولتو درويش باشا بأعظم قبول واختلى بمساعدة يعقوب باشا وتحديث معملها ، وبعدها وصل القاريان الآخران وكانت مقابلتهما اعتيادية ، ولما ركب ذو الدولة درويش باشا على الزورق المعد لركوبه استصحب معه بمساعدة يعقوب باشا وكيل الجهادية فقط وترك الآخرين (٣٥) .

وفي اليوم التالي سافر درويش ووفده إلى القاهرة فجمع مأثور

الضيطة بها بعض الاهالي ومررهم بالطريق الذي يمر منه درويش باشا  
« فاجذوا يرفعون اصواتهم يمدح احمد عرابي وخفض شان الخديو » (٢٦)

ولما ذهب درويش باشا الى سراى الاسماعيليه قابله الخديو  
بالترحاب (٢٧) ورد له الزيارة بسراى الجزيرة ، وهو المكان الذى اعد  
لاقامة الوفد (٢٨) كما حضر الى سراى الجزيرة بعض العلما للترحيب  
بدرويش باشا وتحدث « الشيخ عايش والشيخ حسن العدوى وغيرهم من  
المتبعين الى عرابي عن مسأله الخديو » (٢٩) .

لقد كانت خطة البعثة العثمانية التظاهر لسكل من الخديو والعرابيين  
بان السلطان معه ، وكان من مظاهر ذلك ان الوفد طلب نحو مائتين ثمان  
للضباط مكانة لهم على اخلاصهم للسلطان كما طلب لعرابي النيشان  
المجيدى من الطبقة الاولى ، ولكن بعد ان منح الخديو درويش باشا  
رشوة قيمتها خمسون الف جنيه بالاضافة الى هدايا قيمتها خمسة  
وعشرون الف جنيه (٤٠) انضم درويش علانية الى الخديو وظهر ذلك فى  
محاولاته المتكررة للتخلص من عرابي فطلب اليه ان ينافز الى الاستانة  
لشكر السلطان على منحه الوسلم (٤١) وان يترك له ديوان الجهادية وقد  
عطن عرابي الى العواقب المترتبة على تركه ديوان الجهادية والسفر  
الى الاستانة فقال له « خذ عليك عهدى حفظ الارواح وانتشر ذلك فى  
الجزائر العربية والتركية والافرنجية وانا اتوجه الى الحفرة  
المملوكية » (٤٢) ولما تردد درويش باشا فى الامر ذكر له عرابي بان  
الامة لا تسمح له بمغادرة البلاد (٤٣) وانه لا يستطيع امام الازمة الراهنة  
التي نشأت من جراء عدوان الاتجليز الذهاب الى اى مكان وانه سيعبر  
عن عرفاته للسلطان بالجميل برقية (٤٤) .

ولما فشل درويش فى ميثاقه اعطى اوامر سرية لقبطان الباخرة  
التركية ( عز الدين ) التي اقلته الى مصر بالاستعداد للرحيل والاتلاع الى  
استنبول بمجرد صعود عرابي الى ظهرها ثم ذهب الى عرابي واظهر له  
وده وطلب منه زيارة السفن المصرية الراسية فى الميناء وكذلك الباخرة  
التركية المذكورة ، ولكن عرابي اجس بالمؤامرة فذكر له انه ضابط مشاة  
ولا تسكن له بالبحر ، وان من الاولى بعدم اضعاف الوقت فى زيارة

السفن (٤٥) ولما أحس رجال الثورة العربية ببول درويش باشا العدائية تجاه الحركة الوطنية أرسلوا عبد الله النديم إلى الأزهر حيث عقد اجتماعاً حضره حوالي أربعة آلاف شخص هاجم فيه البعثة التركية والخديو مما عز مركز درويش باشا ، وأصر المجتمعون على رحيله ولو رفض يقبض عليه ويرحل بالقوة (٤٦) .

أما عن موقف أسعد باشا عضو الوفد العثماني والمسكف بالتعامل مع عرابي فقد جيع توقعات من الأهالي بحرية ضد الخديو « ومختومة بالفرن خاتم » (٤٧) .

استمر انحياء درويش باشا للخديو حتى بعد ضرب الاسكندرية ويتضح ذلك من رسالة بعث بها عرابي إلى أحد أصدقاء السلطان يشكو من انحياء درويش باشا إلى الخديو الذي انحاز إلى الإنجليز « مع أنه كان من الواجب على دولته ثمة ودياته أن ينصح الخديو بأن يتوجه معاً إلى العاصمة مقر الحكومة ليكونا خلف الجيش لا أن يتركا جيش الإسلام الشاهاني وينحازوا إلى جيش العدو المحارب. (٤٨) .

استمر طلب الخديو للجند العثمانيين حتى بعد ضرب الاسكندرية ويتضح ذلك من رسالة بعث بها الخديو إلى ثابت باشا يقول فيها « وقد رفعت إلى الحضرة السلطانية بوساطتكم كما كتبت المرة بعد المرة أسف الحالة وجميع متاعدي منصبه على رفع الأذى عن هذه البلاد السلطانية وتوطيد الأمن فيها ... وهذا يتوقف على قدوم العساكر السلطانية (٤٩) .

وبينما هنا أن نذكر بأن كلا من بعثى نظامى ودرويش لم تحضرا إلى مصر بتيسر خالصة بل حضرتا لاثبات سلطة تركيا في مصر دون أن تعمل كلتاها أي عمل نافع لفض النزاع بين العربيين والخديو أو لانتفاذ مصر من مطامع إنجلترا (٥٠) بل تركتا مصر أشد ارتباكاً وأكثر اضطراباً عما كانت عليه ، ويكفى أن نذكر أنه لم يكد يمشى على حضور درويش باشا إلى مصر بضعة أيام حتى وقعت مذبحة الاسكندرية في ١١ يونية ١٨٨٢ ، وفي وجوده أيضاً استمر الموقف في التنازع وشربت الاسكندرية بمدايح الأسطول الإنجليزي وقد زاد موقف تركيا تجاه القضية المصرية تحبطاً

امتناعها في بادئ الامر عن الاشتراك في مؤتمر الاستخانة الذي عقد في عاصمتها في ١٥ يوليو ١٨٨٢ بفرض المحافظة على الأوضاع الحالية في مصر وتأييد سلطة الخديو ، وكان امتناعها مبنيا على أن هذه المسألة داخلية بحجة ليس للدول الأوروبية شأن بها كما كانت تعتقد أن إيفادها درويش باشا إلى مصر سيحل المسألة المصرية وإن التحقيقات التي سيجريها ستسوى الموقف مما يغني عن عقد مؤتمر بشأنها ، ولما أدركت خطأها اشتركت في المؤتمر آخر الأمر ورضيت بإرسال جيش عثماني إلى مصر وفوضت درويش باشا قيادة المسكر العثمانية المقرر إرسالها إلى مصر. وأبلغت الخديو بذلك (٥١) ولكن غات الاوان بضرب إنجلترا للاسكندرية بدافع الأسطول وإرسال قواتها لاحتلال مصر ، وبينما كان الإنجليز يتقدمون في داخل البلاد كانت المفاوضات مستمرة بين اللورد دفرين سفير إنجلترا في الاستانة والباب العالي للاتفاق على خطة إرسال الجيش العثماني إلى مصر وكانت إنجلترا تقصد من هذه المفاوضات إطالة الوقت وتعطيل إرسال جيش من تركيا حتى تتمتع الثورة فلا يبقى سبب لحيء ذلك الجيش (٥٢) وفي غضون ذلك استطاعت إنجلترا تغيير ميزان المعركة ليس حريبا فقط بل سياسيا أيضا إذ استطاعت نتيجة للمحادثات المكثفة بينها وبين تركيا ، ونتيجة لجهود اللورد دفرين مندوبها في الاستانة في الضغط على السلطان (٥٣) فقد ربطت إنجلترا موافقتها على إرسال عساكر عثمانية بإصدار منشور يتضمن أن عرابي عاص وفائر وإن الدولة العثمانية ملتزمة بالمحافظة على الخديو وعلى تسويذه وإمتهارته (٥٤) وقد أصدر السلطان هذا المنشور مما قلب ميزان الحساس الشعبي وأضاع التأييد الاسلامي والعربي للثورة (٥٥) وكان له أسوأ الأثر في النفوس وقد نشر هذا الاعلان في جريدة الجوائب (٥٦) كما أرسلت نسخة منه إلى عرابي (٥٧) .

استغلت إنجلترا هذا المنشور في إضعاف الروح المعنوية لدى العربيين فبادرت القوات الانجليزية بإذاعة اعلان السلطان بعصيان عرابي أثناء زحفها مما أدى إلى ايقاع الفرقة والاحتلال في صفوف العربيين وانصراف الناس عن تأييد عرابي في القتال وخصوصا بعد أن تبكى أعوان الخديو وعلى رأسهم محمد سلطان باشا من توزيع

المنشور (٥٨) على التسيب والجنود الذين أحسوا بتسليمه عنيفة بعد  
الإطلاع عليه مما أثر في روحهم المعنوية وضعفت حميتهم الدينية وسهل  
على الإنجليز دخول مصر (٥٩) .

هذا عن الموقف الرسمي للدولة العثمانية تجاه الثورة العربية أما  
عن الموقف الشعبي داخل الإستانة - وخصوصا موقف رجال الدين -  
فكان في معضلة بجانب عرابي فالشيخ علي أفندي مدرس السلطان  
والحائز على رتبة الصدر ( رتبة دينية ) كان يشيد بعرابي ويثني  
عليه ويقول عنه انه « رجل عظيم متدين » (٦٠) والشيخ نجيب أفندي الحائز  
على رتبة ( الصدر ) أيضا كان من مؤيدي عرابي والمدافعين عنه  
لدى السلطان (٦١) كما كان بعض خطباء المساجد بالاستانة يدعون لعرابي  
على المنابر .

وبما سبق يتضح ان موقف الدولة العثمانية الرسمي تجاه الثورة  
العربية ابتداء من بعثة نظامي باشا وحتى اعلان السلطان منشور  
بعضيان عرابي كان قائما على أهمية تثبيت السيادة التركية على مصر دون  
الاعتماد بمصالح مصر ومصيرها ، كما ان الدولة العثمانية حينما سحقت  
لها الفرصة بالتدخل المسلح في مصر بعد استبعاد الخديو بها خشيت  
من رد فعل الدول الأوروبية وخصوصا إنجلترا ازاء ذلك ، ولما ترددت  
تركيا في نجدة الخديو عسكريا وتباطلت في اتخاذ مواقف محددة طلب  
الخديو من الإنجليز المعونة وكان له ما أراد مما أتاح لإنجلترا فرصة  
احتلال مصر .

## المواشي

- (١) دار الوثائق القومية : محافظ أبحاث — المحفظة ١١٦ دوسيه ٢ « الثورة العربية » ترجمة دفتر ٢٨٧ \* البرقيات الواردة من استانبول والمصادرة إليها أثناء الثورة العربية ١٢٩٨ هـ ( ١٨٨١ م ) .
- (٢) نفس المحفظة والدوسيه . برقية من الجناب العالي الخديو الى الباب العالي بتاريخ ١٥ شوال ١٢٩٨ ( ٩ سبتمبر ١٨٨١ ) .
- (٣) المصدر نفسه .
- (٤) عبد الرحمن الرافعي : الثورة العربية والاحتلال الإنجليزي ، القاهرة — النهضة المصرية الطبعة الثانية ١٩٤٩ ص ١٦٦ .
- (٥) محافظ أبحاث — المحفظة ١١٦ \* البرقيات الواردة من استانبول والمصادرة إليها أثناء الثورة العربية .
- (٦) يحمى جيس سانوا ( يعقوب صنوع ) .
- (٧) محافظ أبحاث ، المحفظة ١١٦ ترجمة دفتر ثمة ٢٨٧ عابدين — البرقيات الواردة من استانبول والمصادرة إليها أثناء الثورة العربية — برقية من الجناب الخديو الى الباب العالي بتاريخ ١٧ شوال ١٢٩٨ هـ ( ١١ سبتمبر ١٨٨١ ) .
- (٨) البرقية السابقة الذكر .
- (٩) دار الوثائق القومية . دفتر ٢٨٧ عابدين — صادر ٧ بتاريخ ٢١ ذي الحجة ١٢٩٨ ( ٣٠ سبتمبر ١٨٨١ ) .
- (١٠) Public Record office, F. O. 407/18 No. 45 Earl Cranville to the Earl of Dufferin, September 18, 1881 Telegraphic No. 436.
- (١١) الوثائق المصرية : العدد ١٢٢٩ في ٨ أكتوبر ١٨٨١ .
- (١٢) عبد الرحمن الرافعي : المرجع السابق الذكر ص ١٦٥ .
- (١٣) عمل ثابت باشا مندوبا للخديو بالاستانة أثناء قيام الثورة العربية واستمر هناك في المسدة من شهر ذي الحجة ١٢٩٨ الى صفر ١٢٩٩ وبعد عودته شغل عدة مناصب منها مهردار خديو ثم عين في نظارتى الداخلية والأوقاف وبعدها شغل منصب رئيس ديوان الخديو ، انظر : دار المحفوظات العمومية : أوراق ريد معاش سعادة محمد ثابت باشا — دولا ب ٢٧ هـ ( محفظة ٥٧٢ دوسيه ١٧٢٠٠ ) .



## الأداسة في المصنف السليمانى وعسير

أصل الإدريسي ودعوته:

أصل الإدريسي بلاد المغرب، وإنما جاءت قصة وصولهم إلى صيبا<sup>(١)</sup> في أعقاب هجرتهم إلى مكة في أوائل القرن الثالث عشر الهجرى أى أواخر القرن الثامن عشر الميلادى حينما رحل السيد/ أحمد الإدريسي<sup>(٢)</sup> مؤسس الطريقة الإدريسية<sup>(٣)</sup> وصاحب المكنة الدينية المعروفة مع بعض أفراد أسرته من فاس بالمغرب إلى مكة المكرمة في عام ١٢١٤ هـ/ ١٧٩٩م، واتخذها مقاما له حوالى ثلاثين عاما، وتلمذ عليه فيها العديد من أعلام الإسلام نذكر منهم السيد/ السنوسى والسيد/ الميرغنى والشيخ الرشيدى وغيرهم.<sup>(٤)</sup> ونظرا لانتشار السيد/ أحمد إدريسي بعلم الحديث وبمناظراته المتعددة لعلماء مكة وكبار رجال الدين بها علا شأنه، وبرزت شهرته العلمية ومكانته الدينية، واستحسن العديد من الناس مجالسه كما قلم بعض شرافة تقوم لمجالسته للتزود من علمه، ولتلقه على يديه، وكان من هؤلاء بعض شرافة "صيبا" وهم عريش الذين دعوه لزيارة بلادهم لتناما لبركته على حد تصورهم، واقتاعا بعلمه، هنا نجد الإدريسي يستجيب لدعوتهم، ويؤسس في بلادهم مركزا دينيا وقد إليه العلماء من كل صوب، كما وقد إليه العديد من أبناء عسير الراغبين فى التزود بالعلم.

والغريب أن دعوة ابن إدريس لقيت من شرافة وكبراء هذه المنطقة واهلها من الرعاية والتشجيع ما مكنها من الاستمرار، بالرغم من أن طريقته فى التصوف لا تتفق مع موقف إراء عسير المتشدد من الصوفية والمتصوفين والذين كانت بلدان تهامة ومنها صيبا تابعة لهم فى ذلك الوقت، والذين كان من أبرزهم على بن مجل المفدى الذى كانت تتبع له هذه البلدان فى العقد الخامس من القرن الثالث عشر الهجرى، وكان من أبرز المناصرين لدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب فى عسير والحريصين على نيل البدع والنسك بكتاب الله وسنة رسوله الأمين.

وقد اقتضت ابن مجل فرصة مكاتبة بعض طلاب عسير الذين يتسمون بالفجرة الدينية يشكون له من شطحات ابن إدريس الصوفية فدعا إلى عقد مناظرة بين ابن إدريس الصوفى، وطلاب العلم الحصريين الشاكين منه والمتشبعين بالروح السلفية على أن تكون هذه المناظرة فى حضوره.

<sup>(١)</sup> أنماج شرق جيزان على مسافة ٣٢ كم وجنوب أبها بحوالى مائتى وعشرة كيلو مترات.  
<sup>(٢)</sup> يرجع نسبته إلى الإمام إدريس بن عبد الله المحض الحسينى بن فاطمة الزهراء رضى الله عنها، وقد ولد فى قرطبة من قرى فاس بالمغرب عام ١١٧٣ هـ (١٧٥٩م) وأخذ علوم الشريعة من علماء المغرب ومن أبرزهم عبد القومسب التنازى والجنترى وغيرهما، وسلك طريقة الصوفية التى تعرف بالأحمدية نسبة إلى اسمه.

<sup>(٣)</sup> للتفاصيل انظر: نخبة من الأساتذة المصريين: معجم أعلام الفكر الإسلامى، المجلد الأول، القاهرة- الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٤م، ص ٤١.

<sup>(٤)</sup> أى إحدى فروع الطريقة للشاذلية، وتعتبر الطريقة السنوسية فى ليبيا والطريقة المرشدية فى السودان فرعين لها.

<sup>(٥)</sup> انشغل: السنة الثانية والأربعون فى ١١ ديسمبر ١٩٢٠م.



وبالرغم من خشية ابن مجمل من انتشار الصوفية في بلاده فقد شغلف مع ابن ادريس وان لم يقصر

على طريقته الصوفية.<sup>(1)</sup>

وظل الادريسي مقبلا في صيدا يتولى التدريس في حلقاته الصوفية حتى وفاته العلية في ١١ رجب ١٢٥٣هـ (١٨٣٧م) بعد ان ترك لأولاده ثروة مادية ومعنوية هائلة خصوصا وان قبره الذي اعتبره الناس مزارا كان يدر عليهم الكثير من الأموال فقد حصل ابنه وحفيده على الثروة والمال من وراء أهمية هذا القبر<sup>(2)</sup> بالنسبة للعامة من الناس.

والمعروف أن زيارة القبور للتبرك بالموتى لا تتفق مع تعاليم الاسلام الصحيحة، ولا مع المبادئ التي نادى بها الامام محمد بن عبد الوهاب والتي من بينها الابتعاد عن تقديس الأولياء أو جعلهم واسطة بين الله وعباده، ولكن نهاية الدولة السعودية المعروفة جعلت بعض الناس يتقاربون بالقبول الأحوال، وعلى كل حال، فإنه نتيجة إتحاح أهالي صيدا بأبناء الادريسي وترغيبهم لهم في الإقامة بينهم أقام أبناء السيد/ احمد الادريسي في صيدا<sup>(3)</sup> وتناسلوا بها، وعاشوا ك أسرة متمتع أفرادها باحترام الناس وتبجيلهم<sup>(4)</sup> إذ عاشت أسرته من بعده تتمتع برفوذ وسلطان عريض يحفظها الاجال الديني مما اكسبها مكانة خاصة، فقد كان الناس يسعون إلى بابهم لخواجا لتلقي الفكر والفتراء الطاعة الولجية والقبول مما هم عليه والامثال لما يقربهم من الله<sup>(5)</sup>

نشأة الإمارة الإدريسية:

وقد تولى الزعامة بعد السيد/ احمد الادريسي ابنه الأكبر السيد/ محمد الذي توفي في عام ١٢٩٦هـ ثم ابنه السيد/ علي الذي توفي في عام ١٣٢٤هـ وكانت زعامة هؤلاء مجرد زعامة دينية تقوم على أساس الفتوى والوعظ ونشر التصوف.

ونظرا لما تعرض له أهالي المصالح في تلك الوقت من مظالم على يد العشائين نتيجة لفساد الإدارة وانتشار الرشوة، وبعد البلاد عن سلطة الحكومة المركزية، ونتيجة أيضا لانقطاع الصلة بين الحاكم والمحكوم وترك مشاكل الأهالي بلا حلول خصوصا وأن اختلاف اللغة كان يعيق عملية التفاهم بين الحكام العشائين والأهالي كل هذا جعل الأهالي ناظرين من الحكم العشائى وتأثيرين عليه لدرجة أن تطاولت بعض القبائل على الحكومة العشائية وعلى القواف العشائية نفسها.

(١) ادريس: الجزء الخامس عدد نو قفدة والحدود ١٤٠١هـ يونيو واسلمس ١٩٨٦م) تيت: جزين ملانظر - احمد بن ادريس، مع قهاء عسير- تحقيق الدكتور عبد الله ابو داهش، صفحات ٣٢٦ ، ٣٢٧ ، ٣٦٥ .  
(٢) Hogarth: Arabia. Oxford , 1922, P. 120.

(٣) سكن صيدا ثلاثة هم السيد / مصطفى والسيد/ السنوسي والسيد/ العريى وقد حافظ هؤلاء على سلطتهم فلم يتزوجوا من غير بيت الاكفاء والاقران لما عبد المتعل قد سافر إلى مصر، وتزوج هناك، وأقام في قرية قريبة قرب الأقصر، وقد ولد له عدة أولاد سافر بعضهم إلى بلاد المغرب وتزوجوا من بيت السنوسي وأقاموا في القيروان.

(٤) للتأصيل انظر: ابن الريماني، ملوك العرب، ج١، بيروت، ١٩٥١، ص ٢٩٧.

(٥) جورج الطوافيوس: بقعة العرب- ترجمة علي حيدر الركني، دمشق، مطبعة القزافي، ص ١٣٦.

(٦) الاخرام: العدد ٩٥٥٦ بتاريخ ٥ شعبان ١٣٢٧هـ (٢١ أغسطس ١٩٠٩م).

ونظرا لتدهور احوال منطقة المخلاف الأممية وعدم استقرارها لتجنب سيطرة الإنجليز على ربوعها<sup>(١٠)</sup> عزم السيد/ محمد الأديسي<sup>(١١)</sup> لحد ألقاد السيد/ لحد الأديسي على أن يدعم مركز أسرته الروحي ويطلب لنفسه بنفوذ زمني سياسي يستطوع من خلاله بناء بيت حاكم محرو من سيطرة الإنجليز فاستغل ما كانت عليه الدولة من ضعف كما استغل استياء الأهالي من الحكم العشوائي، وبقي متحينا للفرص التي يتمكن بها من تثبيت مكانته كزعيم على البلاد مستغلا في ذلك ثقافته الواسعة وقدرته الإدارية فبدأ يجذب الانظار إليه، ولما كانت القبائل في حالة تناحر وصراع مستمر فيما بينها، رأى الأديسي ضرورة توحيد الوفاق فيما بينها، وتوحيد صفوفها لمواجهة العشائيين.

وعندما قامت الحرب بين قبيلتي صديا والجعفرية<sup>(١٢)</sup> في عام ١٣٢٠هـ بذل جهوده في إخماد الحرب بين هاتين القبيلتين عن طريق الصلح والتفويض، والاحتكام إلى الشريعة الإسلامية، ولما نجح في ذلك برزت مكانته، وولت القبائل توجه إليه، وزايت شهرته بعد أن قبض على بعض الأشخاص المجرمين في صديا. الذين ضج الناس من أفعالهم ونفذ فيهم حكم الإعدام، كما قطع رؤوس ثلاثة أشخاص قصاصا، وألوى أربعة عشر حدا من بندر جازان<sup>(١٣)</sup> هذا بالإضافة إلى أنه عالج موضوع مسألة الدماء السابقة بين القبائل فأعلن إسقاط حقوق الأعداء بالثأر برضى جميع القبائل، وإزال ما بين الأهالي من تقاتل وأحقاد، وخلصهم من جميع الضرائب وفقتصر على أخذ الزكاة الشرعية منهم، كما أمر بأن يكف النساء عن الاختلاط بالرجال. كل ذلك رفعه في أعين الناس وقربهم إليه<sup>(١٤)</sup> خصوصا وأن الحكومة العشائية كانت لا تهتم براحة الناس ولا بأمنهم، كما أنها كانت معزولة عن الأهالي، وصلتها بهم كانت مقصورة على جباية الضرائب والقيام ببعض المهام العسكرية، ومن هنا وجد الناس في الأديسي المنقذ والمخلص لهم مما يعانونه من فوضى وأعمال، فبالتحديد من القبائل في تقديره كما يابته قبائل صديا والحسوي والمخلاف الشامي

<sup>(١٠)</sup>الروشح السيد/ محمد الأديسي ذلك في خطاب مؤرخ ٩ رجب ١٣٣٧هـ/ يوليو ١٩٠٩م، كان قد أرسله إلى لحد أصطقله بالقتال، قتال من الفوضى كانت خنارية لطيفا في هذه البلاد عند وصوله إليها، وأن الإنسان كان لا يأن على حياته ما، مثل الحال في درجة أن الإنسان لا يولد (يولد) سراج بيته في الليل مخافة من عدو مرابطة فيمسره على القصور فيضربه بالرصاص.

<sup>(١١)</sup>الأهرام، العدد ٩٥٥٦ في ٥ شعبان ١٣٣٧هـ/ ٢١ أغسطس ١٩٠٩م، ولحقا سيد مصطفى سالم: تكوين قبيل الحديث، القاهرة، معهد الدراسات العربية العليا ١٩٦٣، ص ٨٢.

<sup>(١٢)</sup>ولد في صديا عام ١٢٩٣هـ/ ١٨٧٦م، وتعلم في الأزهر بالقاهرة، وتكلم على يد السنوسيين بعض الوقت في بركة، كما ذهب إلى السودان، وأقام حنقلة، وتزوج بامرأة الشيخ هرون الطويل، شيخ الطريقة الإسماعيلية هناك قبل أن يستقر في صديا ويدير أمورها.

<sup>(١٣)</sup>Toynbee, Arnold J, Islamic World, Survey of International Affairs, Vol 1, London 1927, P. 276.

<sup>(١٤)</sup>ولحقا ملوك العرب للربيعاني، ج ١، ص ٢٩٨.

<sup>(١٥)</sup>اسم قبيلة مسروقة من قبائل المنطقة تلك مواطنها من جربة إلى العقارية في ساحل جازان.

<sup>(١٦)</sup>انظر عبد الرحمن البهكلي: نفع الحود في سيرة الشريف حمود- تحقيق: محمد العقيلي، الرياض ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م، ص ٩٠.

<sup>(١٧)</sup>إسماعيل بن محمد الوثلي القيسي: من تاريخ اليمن الحديث: (إيل) نشر نشاء الحسن العتيبي ببعض حوادث الزمن من القرنين الرابع في اليمن- تحقيق: محمد الشامي، صنعاء، الطبعة الأولى ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م، ص ١٤٤.

<sup>(١٨)</sup>محمد بن أحمد العقيلي: مذكرات سليمان شقيق بالنا متصرف عسير، المملكة العربية السعودية، نادي لها الأدبي، الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٤م، ص ٣٢.

والجماعة اماما على المخلاف السليماني، أما القبائل التي لم تبايعه فقد ادخلها تحت نفوذه بالقوة، وأخذ البيعة من زعمائها، كما أخذ منها عددا من الرهائن ليضمن ولاء تلك القبائل له.

ونتيجة لذلك انتشرت صولة الانديسي إلى "جزان" و "النضير" و "شدا" و "ضبعة بن غلان" مما يلى "رازح" ثم إلى حدود "الله" حيث ذهب إليها واحتلها على رأس حملة قبائلية<sup>(١١)</sup>. يضاف إلى ذلك أن الانديسي استطاع أن ينشر دعوته خارج المخلاف حيث اعتنقت بعض قبائل صعدة تعاليمه<sup>(١٢)</sup> وبدأ يجمع من عشائرها عدة ألقاد وبطون تحت لوائه.

وبعد أن استتب الأمر للانديسي أحل الأمن في هذه المناطق محل القوضى والاضطراب، وعسل على تنظيم حياة البدو من النواحي القضائية والإدارية والاقتصادية فوضع على رأس كل قبيلة من القبائل التابعة له قاضيا ولميرا من قبله بحيث يقوم الأول بالنظر في شئون الأهالي، بينما يقوم الثاني بالنظر في شئونهم الإدارية والحربية ويجمع الزكاة، وقد أخذ على هؤلاء اليهود والمواثق على القيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأجاء العلوم والمدارس وإقامة للشرعية لجراء الحدود<sup>(١٣)</sup>.

كما نظم الانديسي أمور المواثي التابعة له فجعل في كل ميناة جمركا<sup>(١٤)</sup> له عمال وموظفون ممن قبله لاستيفاء الرسوم الجمركية على الواردات والصادرات، وقد حرص الانديسي على أن تكون هذه الرسوم أقل مما كانت عليه خلال الحكم العثماني لهذه المنطقة حتى يظهر للناس عدلته وتمييزه عن العثمانيين وبالإضافة إلى ذلك كون الانديسي في صيدا أول مجلس للحكم من أربعة أشخاص وأقام محكمة من خمسة أعضاء<sup>(١٥)</sup> وعين وكلا له كان بمثابة "رئيس الحجاب" أو "صدر الاعظم" كما عين أمينا للمال كان دوره بمثابة دور وزير المالية في الوقت الحالي<sup>(١٦)</sup> ولكن هل يعنى ذلك أن الأمور استقرت للانديسي تماما وأصبحت القبائل كلها طوع وإفاته؟

لواقع أن الأحداث أثبتت عكس ذلك فبعض القبائل مثل قبائل بني مروان ولشرف حرض كثيرا ما ثاروا على الأدراسة ورفضوا دفع الزكوات المقررة عليهم، وطردوا عمال الانديسي من بلادهم، والتجأوا أحيانا إلى صنتعاء طلبا للحماية. ويؤكد ذلك قيام الانديسي بحملات تأديبية على هذه القبائل ورددها إلى طاعته. (١٧)

(١١) أحمد حسين شرف الدين: قديم عبر التاريخ من القرن الرابع عشر قبل الميلاد إلى القرن العشرين، القاهرة، الطبعة الأولى ١٣٨٢هـ/١٩٦٢م، ص ٢٧٢.

(١٢) السيد مصطفى سالم: مرجع سابق، ص ٨١.

(١٣) فوشلي: مصدر سابق، ص ١٩٣.

(١٤) أي مواثي "مدي" و "الشقيق" و "جبل" و "بركة" و "الغور".

(١٥) المبارك محمد الحرسلي: النظم الإدارية والمالية في تهامة صير خلال الاشراف السعودي، جدة ١٤٠٥هـ، ص ٥٨.

(١٦) السيد مصطفى سالم: مرجع سابق، ص ١٥٧.

(١٧) فوشلي: مصدر سابق، ص ٧.

وبالرغم من علو شأن الأديريسي فإن العثمانيين لم يهتموا بأمره في بداية ظهوره، فقد اعتبروه أحد رجال الدين المتصوفين الذين سرعان ما ينطفيئ نجمهم خصوصاً وأنه ليس لأسرته نسب راسخ في المنطقة التي يحكمها.

وعلى كل حال فلكي يؤكد الأديريسي وجوده في منطقة المخلاف ثار على الحماية التركية الموجودة فيها في عام ١٣٢٧هـ/١٩٠٩م وخاض حرباً مريرة معها مستغلاً في ذلك نفوذه الديني على الأهالي حتى استطاع أن يؤسس إمارة مستقلة له.<sup>(٢١)</sup>

والسؤال الذي يطرح نفسه هو إذا كان الإدارة اغراباً عن هذه المنطقة وليس لهم في أرجائها خذولة أو عسومة أو عصبية تؤمّد أقدامهم إذا تحزب الأمر ضدهم فكيف دانت لهم الأمور في منطقة المخلاف السليماني وعسير؟

الواقع أن النفوذ الديني الذي كان يتمتع به أفراد هذه الأسرة هو كل ما يملكونه في هذه البلاد فقد اجتذبت إليهم قلوب الناس بعد أن ملئت البلاد ظلماً ولذليل على ذلك أنه كان يرد إلى السيد/ محمد الأديريسي يوماً ما بين أربعة وخمسة آلاف شخص يصلون معه المغرب والعشاء ثم يستمعون إليه وهو يخاطبهم بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية الشريفة ويحثهم على اتباع قواعد الدين الصحيحة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلى أن يمضي من الليل لكثره.

ولكي يؤكد الإدارة قدرتهم الدينية كانوا يظهرُونَ أمام الناس بأنهم من أصحاب الكرامات والمعجزات ومما يروى في ذلك ما ذكره صاحب المخلاف السليماني أن الأديريسي كان يطلى وجهه بمادة التوسفور، ويخرج على زواره ليلاً ليظهرهم بتألق وجهه نتيجة للمادة الفسفورية التي يضعها عليها، وأنه كان أحياناً يحضر سلكاً كهربائياً يلقه على حبل يمدّه إلى من يصافحه فتتهزّز بدءاً شديداً فيظن المصافح أن الأديريسي من الأولياء أصحاب الكرامات.<sup>(٢٢)</sup> وهذا أن صح لا يتفق مع تعاليم الإسلام الصحيحة ولا مع المبادئ التي نادت بها الدعوة السلفية بتبذيد البدع والعدول عن الاعتقاد في قدرة الأولياء على الاتيان بالأمور الخارقة للعادة.

ولما تعاطف أمر الإدارة حاولت الدولة العثمانية مواجهة الموقف معهم فأرسل إليهم السلطان محمد رشاد خان وقد اطمأنحتهم كان من بين أعضائه سليمان شقيق باشا متصرف عسير، وقد سار خلف هذا الوفد جيش كبير بقيادة سعيد باشا.

<sup>(٢١)</sup> ملاحظة درويش: العلاقات السعودية المصرية ١٩٢٤-١٩٣٦، رسالة دكتوراه غير منشورة ١٩٧٨م، مكتبة جامعة القاهرة تحت رقم ٢٥٥٦، ص ٢١٧.

<sup>(٢٢)</sup> أحمد بن أحمد العقيل، تاريخ المخلاف السليماني، ج١، الرياض، دار الهمزة، الطبعة الثانية ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م، ص ٦٧٨.

ولكى يؤكد الإدريسي قوته أمام هذا الوفد وقدرته على مواجهة الأمور استدعى من القرى المجاورة لمسيباً نحواً من أربعة آلاف رجل مسلحين<sup>(٢٢)</sup> لاستقبال أعضاء الوفد ظاهراً، وإن كانت الحقيقة أنه أراد أن يثبت أمامهم أن لديه قوة قادرة على حمايته. وفي نفس الوقت استطاع الإدريسي بما يتمتع به من ذكاء أخفئه نواياه فأوضح الوفد أنه "لا طمع له برياسة، وإن القبائل اعتادت أن تلجأ إليه برضا منها لحل ما بينها من مشاكل، وإنها تطلب منه أن يسعها بالمرشدين لازالة ما بينها من مشغلتين"<sup>(٢٣)</sup>. وأنه لا هدف له سوى اصلاح الادارة والمحافظة على الأمن، وأنه يعمل لأجل مصلحة الدولة دون أن تكون له مصلحة سوى ما يرجوه من ثواب الأخرة ولكن المأمورين يحرفون الكلام عن مواضعه، ولما سألوه الوفد عما اجراء من القصاص بغير أمر السلطان قال "جرينا بمقتضى التراضي عليه من اجاني أولياء المجنى عليه والمصلحة العامة في ذلك"<sup>(٢٤)</sup> فافتتح الوفد بالقوله وأعرض عنه صفحا، وفوضه في بعض المهام التي كانت سببا في زياد نفوذه بين القبائل<sup>(٢٥)</sup> منها أن يرسل الإدريسي إلى القبائل من المرشدين ما يحل مشاكلهم صلحا بشروط أن يصححهم موظف من قبل متصرف عسير ومنها إلغاء الضرائب المفروضة من جانب الحكومة العشائية على أهالي المنطقة والإكتفاء بما يحصل منهم من زكاة شرعية<sup>(٢٦)</sup> وبذلك تمكن الإدريسي من الحصول على اعتراف الحكومة العثمانية بهيمنته على المنطقة وتم سحب الفرقة العسكرية التي أرسلت من الأمستانة إلى عسير وبعد أن نجح الإدريسي في توليد مكانته في المنطقة التي امتدت إلى البوك شمالا وإلى الموسم جنوبا عمد إلى تشكيل هيكل اداري ثابت قوامه الوزراء والقضاة وقادة الجيش، فشكل وزارة مسن أربعة وزراء أولهم يحيى زكري حكي الذي كان بمثابة الوزير الأول الذي يرافق الإدريسي في كل جولاته، والثاني كل يحيى عوض باسمه الذي اختص بالشؤون المالية فكان يشرف على كل ما يتعلق بالصادرات والواردات والثالث كان حمود بن سرداب الحازمي الذي اختص بالاتصال بالقبائل وفرض المذاكات فيما بينها كما كان بمثابة المسئول عن اعداد الجيوش. اما الوزير الرابع فكان محمد طاهر رضوان السدي حسن عليه بيده الجيوش في المعارك.

وإلى جانب ذلك أنشأ الإدريسي محكمة شرعية في صيبا وعين منبرا للشرطة، ومحتسب لمراقبة الأسواق والمحافظة على الاخلاقيات والقيم والحث على أداء الصلاة في أوقاتها.<sup>(٢٨)</sup>

<sup>(٢٢)</sup> محمد بن أحمد العقيلي: مذكرات سليمان شفيق باشا، ص ٣٨.

<sup>(٢٣)</sup> نفسه.

<sup>(٢٤)</sup> نفسه: مصدر سابق، ص ٨٩.

<sup>(٢٥)</sup> المقطع: الجزء الخامس من المجلد الثاني والثمانين بتاريخ أول مايو ١٩٣٣ مقال للاستاذ فؤاد حمزة تحت عنوان "شراف بلاد العرب - شراف ابو عريش وال عاتق والادارسة"، ص ٥٤٧.

<sup>(٢٦)</sup> مبارك الحارثي: مرجع سابق، ص ٥٩.

<sup>(٢٧)</sup> نفسه، ص ٦٠-٦١.

والسؤال الذي يطرح نفسه هو هل تم إزالة الخلاف بين الأدريسى والدولة العثمانية بعد هذه المقابلة؟ الواقع أن سليمان باشا متصرف عسير ظل يشكو في مذكراته من الشكوى من لجوء الأدريسى لكافة الطرق لتقوية نفوذه على حساب الدولة العثمانية، ومن ذلك أنه كان يرسل رجاله إلى القبائل دون علمه ومنها رفضه تسليم القارين من وجه العثمانيين إلى صديا بحجة أن تسليم الدخيل ليس من عادات العرب، ومنها دعوته إلى رجال القبائل بحصيان الحكومة والتمرد عليها.

وتنظرا لفقار الثقة بين الطرفين أخذ الأدريسى أهيته للزحف على ألبها مركز القيادة للتركبة في ذلك الوقت، وقاعدة المتصرفية فأرسل بمنشوراته إلى القبائل يدعو فيها كل قبيلة إلى الزحف على ألبها<sup>(٢٩)</sup> في عام ١٣٢٨هـ / ١٩١٠م وشدد الأدريسى الحصار على ألبها، ولكن متصرفها العثماني سليمان شفيق كمال استطاع تحصين المدينة بإقامة الخنادق والسدود في منافذ ألبها الخارجية حتى أصبحت البلدة عبارة عن قلعة، ولما قامت قوات الأدريسى بالهجوم على ألبها لم تجد الأمر سهلا، فطلت تحاصر المدينة حوالي سبعة شهور لكن الجيش العثماني خلالها الحرر والكلاب ونتيجة لتفاهم الموقف حاولت الدولة العثمانية التفاوض مع الأدريسى فأرسلت بعض مندوبيها إليه، غير أن الأدريسى عرض عنهم ورفض مفاوضاتهم<sup>(٣٠)</sup> واستمرت قواته في حصارها، حتى استطاعوا زحزحة العثمانيين عن بعض مواقعهم، ونتيجة لذلك أرسلت الدولة العثمانية حملة قوية لفك حصار ألبها شارك فيها كل من شريف مكة الذي كانت له قرابة خولة في عسير، فالخرد الأهالي في ملك طاعته ولم يبق في طاعة الأدريسى سوى قبيلة زهران في شمال عسير<sup>(٣١)</sup>، ونتيجة لذلك انسحب الأدريسى إلى المرتفعات، وكله تصميم على استخلاص كل مناطق عسير من الأتراك أو إجبارهم على الأقل على الاعتراف بوضعه فيها.

#### تحالف الأدريسى مع إيطاليا وبريطانيا ضد الدولة العثمانية:

وبعد إعلان الحرب بين إيطاليا والحكومة العثمانية عام ١٣٢٩هـ، ١٩١١م بسبب الأطماع الإيطالية في ليبيا استغل الأدريسى الموقف لصالحه، ونجح في تشديد قبضته على المناطق التي تحت سيطرته كما اتفق مع الحكومة الإيطالية على أن يقف بجانبها ضد العثمانيين في نظير أن تدعم بما يحتاج إليه من المال والذخيرة والعتاد، هذا في الوقت الذي كان يجب عليه مساعدة السنوسيين المسلمين في ليبيا خصوصا وأن جده كان على اتصال بهم، كما أنه تتلمذ على يديهم بعض الوقت يضاف إلى ذلك أنه في الوقت الذي انتاب فيه العالم الإسلامي موجه من الحماس لمساندة لمقاومة لليبية ضد العدوان الإيطالي البشع الذي هدد وجود

<sup>(٢٩)</sup> مذكرات سليمان شفيق، ص ٦٤.

<sup>(٣٠)</sup> نفسه، ص ٦٩.

<sup>(٣١)</sup> اسماعيل الوشلي: مصدر سابق، ص ٩٥.

الإسلام ذاته فإن الإدريسي استعان بالأسطول الإيطالي لطمع الدولة العثمانية خلال محتتها. كل ذلك يجعلنا نتساءل عن الأسباب التي دفعت الإدريسي إلى ذلك.

الواقع أن الإدريسي كان يحاول تثبيت أركان حكمه في المناطق التي يحكمها، ولما كان ذلك لا يستمر إلا بمساعدة قوى خارجية فقد استعان بالإيطاليين لتحقيق طموحاته دون أن يظن لمخاطرهم واستطاع بدعم منهم أن يستحوذ على ميناءي جيزان وميدى<sup>(٢٢)</sup> ولما استنفذت اغراض الإيطاليين معه تخلوا عنه مما جعله ينتقل إلى الإنجليز، فعقد علاقات صداقة مع الحكومة البريطانية وكان أول حاكم عربي يتحالف مع الإنجليز صراحة وأول من حمل السلاح ضد الدولة العثمانية<sup>(٢٣)</sup>. كما أن السؤال المطروح هنا أيضا هو ما هي مصلحة كل من إيطاليا والإنجليز في التحالف مع الإدريسي ومساندته؟

الواقع أن إيطاليا كانت تتطلع إلى فرض سيادتها على اليمن وعسير، وأحكام قبضتها على الشاطئ الشرقي للبحر الأحمر بعد أن استولت على إريتريا، يضاف إلى ذلك أن عداء كل من الإدريسي وإيطاليا للدولة العثمانية قد جمع بينهما، ومن هنا استغلت إيطاليا من ارتباطها بالإدريسي في زعزعة وضعها والموقف العثماني في المفاوضات التي جرت بين العثمانيين والإيطاليين، وأدت إلى استيلاء إيطاليا رسميا على طرابلس الغرب.<sup>(٢٤)</sup>

أما عن إنجلترا فقد ساندت الإدريسي لاعتقادها بأنه سيكون سندا لها ضد العثمانيين فيمنعهم من استخدام موانئ البحر الأحمر ويدعم مركزهم في الجنوب.

وهنا يحق لنا أن نتساءل كيف يقف شخص مسلم متدين مثل الإدريسي بجانب دولة أجنبية مثل إيطاليا سفكت دماء المسلمين في ليبيا واستباححت أراضهم في الوقت الذي كان يجب عليه مؤازرة الدولة العثمانية التي كانت تقف في موقف المدافع عن العالم الإسلامي؟

لقد برر الإدريسي موقفه بأن الدولة العثمانية كانت كثيرا ما تنكث عهودها معه، فكثيرا ما اتفقوا معه ثم نقضوا عهودهم كلما ولتهم الفرصة، كما أوضح أن قلة تدين الأتراك جعل البدو يتفرون منهم<sup>(٢٥)</sup> هذا إلى جانب رغبته في أن تكون عسير للعسيريين لا للعثمانيين ولا لغيرهم ومن هنا لجأ إلى الأجانب لتخليصه من الأتراك، وهذه الطريقة كثيرا ما كانت تمارسها الكيانات التي لا جذور لها ولا مقومات.<sup>(٢٦)</sup>

ويمكننا أن نصنيف إلى جانب ما ذكره الإدريسي أنه بعد أن تولت جمعية الاتحاد والترقي الحكم في الدولة العثمانية، بدأت حركة التنريك التي أساعت كثيرا إلى الولايات غير التركية التابعة للدولة، كما تزايد

<sup>(٢٢)</sup> مبارك الحارثي: المرجع السابق، ص ٤٢.

<sup>(٢٣)</sup> أمين الريحاني: ملوك العرب، ج١، ص ٢٩٨، وانظر أيضا:

Hurewitz: J.C: Diplomacy in the Near And Middle East, Vol2, P.12.

<sup>(٢٤)</sup> مبارك الحارثي: مرجع سابق، ص ٤٢.

<sup>(٢٥)</sup> سيد مصطفى سالم: مرجع سابق، ص ١٠٠، ١٥٨.

<sup>(٢٦)</sup> نفس المرجع

أعمال شئون العرب، هذا بالإضافة إلى رفض العثمانيين الاعتراف بوضع الأدريسى على النقيض مما فعلوا مع الإمام يحيى الذي تصالحوا معه واعترفوا به بضاف إلى ذلك رغبتهم في القضاء عليه كل ذلك دفعه إلى الانحياز للإيطاليين ثم إلى الانجليز بعد ذلك. وإذا كان ذلك كذلك فهل كان الرأي العام الأسلمي في منطقة المخلاف السليماني وعسير راضيا عن الانضمام الأدرسي للأجانب.

الواقع أن الرأي العام في هذه المنطقة كان غير راض عن هذا التحالف بل كان متعاطفا مع العثمانيين بصفتهن مسلمين<sup>(٣٧)</sup>، ومن هنا حرص الأدريسى على عدم انشغال علاقته مع البريطانيين والإيطاليين أمام مواليته حتى لا يتأثر مركزه الديني لدى أتباعه نتيجة لاتصاله وتحالفه مع غير المسلمين<sup>(٣٨)</sup>. ولكن هذه الأمور تغيرت نتيجة لانضمام الدولة العثمانية إلى ألمانيا التي كانت تحارب من أجل التوسع الاستعماري.

وعلى كل حال فقد عظم شأن الأدريسى بعد أن نشبت الحرب بين الدولة العثمانية وإيطاليا حيث أصبح لديه الكثير من الأسلحة والذخيرة خصوصا بعد أن أغرق الإيطاليون بواخر خفر السواحل العثمانية، واستولوا على ما فيها من سلاح أعطوا الكثير منه للأدريسى<sup>(٣٩)</sup>.

وهذا أيضا نتج عن كل قوات الأدريسى من رجال المخلاف السليماني لم أنه استعان بقوات أخرى؟

الواقع أنه بعد أن ثقل العبء على رجال قبائل المخلاف السليماني رأى الأدريسى تخفيف الضغط عنهم بالاستعانة بغيرهم من رجال القبائل الأخرى عن طريق اغداق الهدايا والأموال عليهم فنشط في استمالة بعض قبائل عسير، ونجح في ذلك إلى حد كبير لدرجة أنه استقبل في جيزان مائتي مسدوب عن قبائل عسير<sup>(٤٠)</sup>. بضاف إلى ذلك أن الأدريسى تمكن من تجنيد قبائل "يام" و "حاشد" و "بكيل" وعين لهم قائدين من رجال المخلاف هما منصور بن حمود أبو مسمار، وأحمد عبد الله الموهوكي، كما استعان الأدريسى بجنود مرتزقة من الصومال شكل منهم حرسه الخاص لفترة، ولكن نظرا لعدم تألفهم مع الأهالي قام بتوزيعهم على المراكز التابعة لها<sup>(٤١)</sup> وأعطاهم مهمة أعمال الشرطة والحراسة.

وظل الأدريسى يعمل على تدعيم قواته فأعاد تحصين الهوائى التي في حوزته، ووضع فيها المدافع الكبيرة وساعده على ذلك سهولة اتصاله بالقوى المسيطرة على البحر الأحمر كإيطاليا وبريطانيا كما كان

<sup>(٣٧)</sup> مبارك الحرسلي: مرجع سابق، ص ٤٤.

<sup>(٣٨)</sup> الفاروق أياطة: عن السياسة البريطانية في البحر الأحمر ١٨٣٩-١٩١٨. القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٦، ص ٦٢١.

<sup>(٣٩)</sup> سيد مصطفى سالم: مرجع سابق، ص ١٨٢.

<sup>(٤٠)</sup> الفاروق أياطة: مرجع سابق، ٦٢٢.

<sup>(٤١)</sup> نفسه، ص ٥٨٤.



يساءل من اسراء من العثمانيين، وخاصة ممن كانت لهم خبرة في المنفعة لتدريب جنوده، ورفع كفاءتهم الحربية.

#### فشل المفاوضات بين الأديسي والدولة العثمانية:

بظل موقف العداء مستحكماً بين الادارة والعثمانيين إلى أن اعلنت الدولة العثمانية عن رغبتها في المفاوضات مع الأديسي فقبل، وفتح باب المفاوضات معهم، ولكنها لم تسفر عن نتيجة إذ كان العثمانيون يرون الاعتراف بوضع الأديسي الخاص في أمارته، وصرف مرتب شهري له من الدولة في مقابل أن يقدم الطاعة والولاء للامام يحيى وأن يتخلى عن تحالفه مع أعداء الدولة في حين كان الأديسي يتمسك بالمطالب التالية:

- ١- الاستقلال الإداري التام لإمارته، مع الاعتراف بسيادة الدولة العثمانية.
- ٢- عدم تدخل الدولة العثمانية في شئون موظفيه ورجاله.
- ٣- أن يكون علم الادارة من الهلال والنجمة مع كلمة التوحيد من جهة وعبرة محمد رسول الله من الجهة الأخرى.
- ٤- أن يكون الجنود من أبناء المنطقة المحليين.
- ٥- أن يكون تنظيم الجمارك والمعاهدات التجارية من حق الادارة.
- ٦- أن تطبق في البلاد احكام الشريعة الاسلامية ، وتكون اللغة العربية هي اللغة الرسمية فيها.
- ٧- أن تكون السكك الحديدية ومصالح التلغراف وغيرها من المنافع العامة في قبضة الادارة وتابعة لآشرافهم.
- ٨- أن يصدر بهذا الاتفاق فرمان سلطاني ترسله الامانة إلى عسير على سفينة حربية وفي يد مندوب عال، ويقرأ في احتفال عام يختار الأديسي مكانه. هذا إلى جانب بعض البنود الخاصة بالمسائل الفرعية وغيرها.<sup>(١٧)</sup>

وعند تحليلنا لوجهتي نظر كل من الطرفين يتضح الآتي:

- أن الجانب العثماني لم يكن موافقاً في شرطه تقديم الأديسي الطاعة للامام يحيى خصوصاً وهو يعلم ما بين الطرفين من مشاكل وصعوبات سياسية ومذهبية هذا إلى جانب أن الأديسي خلال فترة المفاوضات كان نفوذه قد انتشر انتشاراً هائلاً والتكلمت احواله وتسلحت رجاله.

(١٧) المنار: المجلد ١٦، ج٦، ص ٤٧٠، وسيد مصطفى سالم، المرجع السابق، ص ١٨٥.

- أما عن شروط الأدريسى فقد كانت قاسية ومن الصعوبة على الدولة العثمانية قبولها خصوصاً وأنها كانت تخشى أن يظهر في أطراف أركانها المتزامية مثلات مثل الأدريسى يدعون بأنهم أصحاب حقوق في بقعة ما من الدولة، لذلك كان من الطبيعي أن تفشل المفاوضات وتعود حالة العداء إلى ما كانت عليه.<sup>(١٢)</sup> ومع ذلك فربما نقدر للأدريسى موقفه في اشتراطه أن تكون اللغة العربية هي لغة التعليم والقضاء والإدارة في الاتصالات مع الأتلة، وفي أن تكون أحكام الشريعة الإسلامية هي الأحكام المطبقة في ماريته، فقد كان الأدريسى في مطالبه هذه جسوراً وموقفه يدعو إلى الإعجاب.

وعلى كل حال فإنه نتيجة للصلح الذي تم بين العثمانيين والامام يحيى اهتز مركز الامام امام عامة اليمنيين في الوقت الذي اشتد فيه نفوذ الإدارة في منطقة المخلاف السليماني وعسيرة، ويرجع ذلك إلى أن القبائل اليمنية التي كانت قد اتخذت من الحرب مهنة وعمل لم ترض عن هذا الصلح، والتفت حول الأدريسى الذي استمر على عدائه للعثمانيين وواصل الحرب ضدهم يضاف إلى ذلك أن بعض اتباع الامام خصوصاً من افراد قبيلة حاشد التي كانت يعتمد عليها الامام اعتماداً رئيسياً التفوا حول الأدريسى وياوموه واصبحوا من حملة عسكره. كل ذلك شجع الأدريسى على اظهار العداء للعثمانيين ومواصلة الحرب ضدهم.<sup>(١٣)</sup>

وعندما قامت الحرب العالمية الأولى قامت بريطانيا خططها تجاه الدولة العثمانية على اساس التحالف مع أعدائها في المنطقة. ومن هنا ركز الانجليز نظارهم على الأدريسى مستغلين كراهيته للعثمانيين ، فمع أنه لم يكن في استطاعته المشاركة في مجهودات الحرب، ولم تكن له قيمة عسكرية الا في نطاق حدوده المحلية فقد حاول الانجليز ضمه إلى صفوفهم خصوصاً وأنه كان يستطيع أن يثقل حركة القوات العثمانية نظراً لأنه يتحكم في منطقة ساحلية هامة على ساحل البحر الأحمر يمكن عن طريقها وضع القوات العثمانية المرابطة في اليمن بين فكي كمانشة أي بين عسيرة وعدن، كما أنه بإمكانه أن يعطل المواصلات العثمانية بين الحجاز واليمن، وأن يهدد العثمانيين إذا ما هاجموا عدن، هذا بالإضافة إلى تمكنه من منع العثمانيين من استخدام سواحل البحر الأحمر كقواعد معادية ضد أساطيل الحلفاء في جنوبي البحر الأحمر.<sup>(١٤)</sup>

ومن هنا رحبت بريطانيا بالتفاوض مع الأدريسى، ورحب الأدريسى من جانبه بالتفاوض مع بريطانيا توطئه للتحالف معهم لمحاربة الأتراك ونتيجة لذلك أصدرت الحكومة البريطانية لوامرها إلى المقيم السياسي البريطاني في عدن تطالبه بسرعة العمل على عقد معاهدة صداقة مع الأدريسى. ونتيجة لذلك دارت

<sup>(١٢)</sup> نفسه.

<sup>(١٣)</sup> أفاروق لياطة: الحكم العثماني في اليمن ١٨٧٢-١٩١٨ بيروت، دار العودة، ١٩٧٩م، ص ٢٩٥.

<sup>(١٤)</sup> السنداء الدراسات العليا للتاريخ الحديث بجامعة عين شمس: البحر الأحمر في التاريخ والسياسة الدولية المعاصرة ١٩٨٠، مقال للدكتور محمد السروجي تحت عنوان موقف بريطانيا في البحر الأحمر في الحرب العالمية الأولى، ص ٤١٧، وأيضا جلال يحيى: الثورة العربية: القاهرة، دار المعرفة ١٩٥٩، ص ١٣٠.

المفاوضات بين الطرفين، حاول الأدريسى خلالها الحصول على الأسلحة والأموال من بريطانيا، في حين رغب الإنجليز في التحالف معه لمساندتهم ضد أي محاولة عدائية يقوم بها الإمام يحيى.<sup>(١٢)</sup> وانتهت في ٣٠ أبريل ١٩١٥ بمعاهدة يتضح منها معالم السياسة البريطانية في منطقة البحر الأحمر خلال الحرب العالمية الأولى فقد كان جل هدفها محاربة النفوذ العثماني المنافس لها في هذه المنطقة. وفيما يلي نستعرض ملخصاً لأهم بنود المعاهدة:

- ١- إن الأهداف الرئيسية لهذه المعاهدة هي شن الحرب ضد العثمانيين وتعزيز ميثاق الصداقة بين السيد الأدريسى ورجال قبائله وبريطانيا.
  - ٢- يوافق السيد الأدريسى إن يشن الهجوم ويحاول طرد العثمانيين من قواعدهم في اليمن، وإن يضيق القوات العثمانية في اليمن بأقصى قوته، ومن ثم يوسع رقعة إمارته على حساب العثمانيين.
  - ٣- إن هدف السيد الأدريسى الأول ضد العثمانيين فحسب ولا يمس ما يؤثر الخصومة والعداء مع الإمام يحيى الذي لم يمد يده فعلاً للعثمانيين.
  - ٤- يلتزم الحكومة البريطانية بحماية إمارة السيد الأدريسى ضد أي هجوم بحري يشنه أي عدو لضممان الاستقلال بإمارته، وتتعهد بريطانيا بأن تتخذ جميع الوسائل الدبلوماسية للنظر في المشاكل التي تنشأ بين السيد الأدريسى والإمام يحيى وبين أي منافس.
  - ٥- ليست لدى حكومة بريطانيا أي رغبة في توسيع حدودها في غرب الجزيرة العربية، ولكنها لا ترغب إلا أن ترى مختلف حكام العرب يعيشون معاً في سلام، كل في نطاق إمارته، ولكم يحتفظون بصداقة الحكومة البريطانية.
  - ٦- إن الحكومة كئيل منها على تقدير العمل الذي سيقوم به السيد الأدريسى لمنته بالمال والمعدات الحربية، وستستمر في تقديم العون له في الحرب طيلة مدة اشتراكها بقدر النشاط الذي يقوم به السيد الأدريسى.
  - ٧- أنه في الوقت الذي تفرض فيه بريطانيا الحصار على الملاحة في جميع الموانئ العثمانية قسوى البحر الأحمر منذ عدة أشهر فقد أعطت السيد الأدريسى الحرية الكاملة في الملاحة والتعامل التجاري بين موانئه وعدن، وإن بريطانيا إذ تقدم هذا الامتياز رمزاً للصداقة القائمة بينها تتعهد بأن هذا الامتياز سيستمر ولن يتعرض للتوقف.<sup>(١٣)</sup>
- وهكذا التقت بريطانيا مع الأدريسى على محاربة العثمانيين واستفاد قوتهم، ومنعهم من استخدام الموانئ اليمنية ضد مصالح بريطانيا في مقابل أن تتعهد بريطانيا بمساعدته عسكرياً ومادياً حتى يستطيع

<sup>(١٢)</sup> Hurewitz, J.C. op.cit, vol 2, p. 12.

<sup>(١٣)</sup> أحمد بن أحمد العقيلي: تاريخ الخلاف السليماني، ج ٢، ص ٧٣٣-٧٣٤، نقلاً عن جريدة عكاظ، العدد ٣ بتاريخ ١٩٧٩/١٢/٢٤.

المحافظة على بلاده كما تسمح لصفته بالمرور في البحر الأحمر والاتجار مع ميناء عدن<sup>(١٧)</sup>، وبموجب هذه المعاهدة امتدت بريطانيا الاندريسي بكميات كبيرة من الأسلحة والذخائر، ونظرا لأن الإدارة كانوا يفضلون استعمال الأسلحة التي كانت إيطاليا قد امتدت بها من قبل لخبرتهم بها وقدرتهم على استعمالها<sup>(١٨)</sup> فقد طالب الاندريسي بريطانيا بمداده بكميات من الذخيرة التي يمكن استخدامها بواسطة البنادق الإيطالية مما أوقع الانجليز في مأزق خصوصا بعد أن اعربت إيطاليا عن عدم قدرتها على توفير مثل هذه الذخيرة ولهذا قامت بريطانيا بالاتصالات اللازمة مع الحكومة الفرنسية لاجابة مطالب الاندريسي وتزويده بالأسلحة والذخائر اللازمة لقواته. <sup>(١٩)</sup>

ونتيجة لتسلوحي الإدارة بالذخائر المناسبة قاموا في مايو ١٩١٥ بمهاجمة "للحية" تحت قيادة مصطفى ابن عبد المتعال الاندريسي الذي قسم جيشه إلى قسمين قسم برئاسة احمد الحازمي وتوجه بمحاذاة الساحل إلى ميناء اللحية، والقسم الآخر وكان يقوده الحسن بن احمد بن مسمار وتوجه إلى "دير حسين". ونظرا لعدم قدرة جيش الإدارة على اقتحام ميناء اللحية قام الأسطول البريطاني بضرب هذا الميناء من البحر تأكيدا من بريطانيا لمساعدتها للاندريسي<sup>(٢٠)</sup>، وبذلك تمكن الإدارة من الاستيلاء على ميناء اللحية واتخذوه مركزا لقيادتهم كما نجح الحسن بن مسمار في الاستيلاء على "دير حسين" ولكن ذلك لم يستمر طويلا حيث ثارت حنايظ العثمانيين على الاندريسي واستطاعوا التقدم إلى معسكر الإدارة في "دير حسين" والاستيلاء على ما فيه من أسلحة وذخائر<sup>(٢١)</sup> كما استطاعوا الاستيلاء على معسكر "لعطن" واستعادة ميناء "للحية" مما دفع قائد الإدارة إلى الاتجاه للأسطول البريطاني الذي صب نيران مدافعه على ميناء اللحية للمرة الثانية فاضطر العثمانيون إلى إخلائها<sup>(٢٢)</sup>.

ولكي تؤكد بريطانيا تحالفها مع الاندريسي عقدت معه معاهدة ثانية في ٢٢ يناير ١٩١٧م جددت فيها المعاهدة السابقة، كما اعترفت له بالسيادة على تهامة حتى اللحية في الجنوب، والقنفذة في الشمال<sup>(٢٣)</sup>، هذا بالإضافة إلى اعترافها باستيلاء الاندريسي عن جزر فرسان<sup>(٢٤)</sup> من العثمانيين وبأنها أصبحت جزءا من ممتلكاته وتمهنت بحمايته من أي اعتداء خارجي، وتعهد هو بعدم إقامة علاقات سياسية أو تجارية مع أي حكومة اجنبية قبل الرجوع إلى بريطانيا.

<sup>(١٧)</sup> الفاروق يانلة: مرجع سابق، ص ٥٨١، والمقتطف: المجلد التاسع والخمسون، ج ٣، سبتمبر ١٩٢١، ص ٢٦٧، تحت عنوان "بريطانيا العظمى والمغرب".

<sup>(١٨)</sup> Jacob, H.F: Kings of Arabia. London, 1923, P. 176.

<sup>(١٩)</sup> الفاروق يانلة: مرجع سابق، ص ٦٢٤.

<sup>(٢٠)</sup> نفسه، ص ٥٨١.

<sup>(٢١)</sup> احمد بن احمد العقيلي: المصدر السابق، ص ٧٢٩.

<sup>(٢٢)</sup> نفسه، ٧٣٠.

<sup>(٢٣)</sup> بلده على بعد ٢٠٠ ميلا إلى جنوب جدة.

<sup>(٢٤)</sup> تبعد عن جيزان ستين ميلا بحريا، طولها ١٠٠ كم وعرضها ٣٠ كم.

ومن هذه المهادنة يتضح أن بريطانيا كانت تعتبر الإدريسي حليفا لها ولم تعتبره اسيرا خاضعا لحمايتها ويؤكد ذلك اعترافها باستقلاله في جميع ممتلكاته<sup>(٥٦)</sup> وإلى جانب ذلك فمن الواضح أن الإنجليز زافوا في لرضاء الإدريسي بحسم نقطة الخلاف الدائرة بينه وبين الشريف حسين شريف مكة بشأن قفزة لصالحه خاصة وأن قوته تتمركز على الساحل وأن مصالحه تتأثر مباشرة بقوة البحرية البريطانية في البحر الأحمر. وهكذا استفاد الإدريسي من تحالفه مع الإنجليز استفادة عسكرية واقتصادية كبيرة فحصل منهم على أحدث الأسلحة والذخائر اللازمة لإبعاد العثمانيين عن بلاده، كما استفادت بلاده اقتصاديا حيث تمتعت بنسوع من الرخاء الاقتصادي، وذلك بفتح أبواب التجارة أمامها فقد ظلت موانيه مفتوحة في وقت حوصرت فيه موانئ اليمن مما مكّن من التحكم في السلع التجارية وأسعارها كما تخلص من الاختناق الاقتصادي الذي شعر به سكان المناطق المجاورة وكان ذلك خدمة هامة لتضع أثرها خلال الحرب إذ كانت موانئه هي الموانئ الوحيدة المفتوحة في وقت كان الحصار البريطاني البحري للمناطق اليمنية يكاد يفشل بالحركة التجارية بها ويهدد بقيام المجاعات<sup>(٥٧)</sup> وقد عبر عن ذلك أحد شهود العيان بقوله "لنقطعت البواخر البحرية وعظم الحرب، ودخلت سنة ١٣٣٣ هـ/ ١٩١٤م واشتدت الحرب العظمى وامتدت القطارات والبواخر البحرية واصاب الناس ضرر شديد بسبب ذلك"<sup>(٥٨)</sup>

ولقد كان من النتائج المترتبة على هذا الحصار عدم قدرة الإمام يحيى على دفع المرتبات الشهرية للقبائل الموالية له، مما جعل العديد من رجالها يفضلون ترك خدمة الإمام والانضمام إلى الإدارة ويؤكد ذلك ما ذكره الوشلي بأنه بعد أن جاءت هذه القبائل إلى الإمام وطلبوا منه تسليم مرتبتهم الشهرية اعترض لهم.. لانقطاع قنازل البحري بسبب المحاصرة.. فزولوا إلى الإدريسي ليكونوا من جملة عسكريه ويصلوا إلى مقصودهم من الكفاية فاجتمع عنده منهم ما يزيد على عشرة آلاف مقاتل، فرتب لكل واحد منهم سبعة عشر ريالاً شهرياً.. وامرهم بالتوجه إلى اليمن لقتال الدولة العثمانية"<sup>(٥٩)</sup>

وعلى كل حال فبانتهاء الحرب العالمية الأولى انهيار الحكم العثماني تماما واشتد ساعد الإدريسي حيث تم استسلام قوات العثمانية في اليمن امام الإنجليز، وقام البريطانيون بتسليم ميناء الحديدة- التي تعتبر بوابة صنعاء إلى العالم الخارجي<sup>(٦٠)</sup> - إلى الإدريسي في عام ١٣٤٠ هـ - ١٩٢١م مما جعل صنعاء تنفصل عن البحر، وساعد على اشتداد النزاع المسلح بين اتباع الإمام يحيى والإدارة. والسؤال الآن هو هل كان

<sup>(٥٦)</sup> الفاروق اباطة: مرجع سابق، ص ٥٩٥.

<sup>(٥٧)</sup> السيد مصطفى سالم، مرجع سابق، ص ٢١٣.

<sup>(٥٨)</sup> عبد الواسع بن يحيى الواسعي: تاريخ اليمن المسمى فرجة الهموم والحزن في حوادث وتاريخ اليمن. القاهرة، المطبعة الثانية، ص ٣٢٩-٣٣٠.

<sup>(٥٩)</sup> الوشلي: مصدر سابق، ص ١٧٧.

<sup>(٦٠)</sup> جون بالدرى: العمليات البحرية البريطانية ضد اليمن إبان الحكم التركي ١٩١٤-١٩١٩، ترجمة سيد مصطفى سالم، القاهرة، المطبعة الفنية، ص ١٣٤.

من حق بريطانيا تسليم ميناء الحديدة للدارسة، وهل استطاع الادارة إدارة هذا الميناء كما ينبغي؟  
الواقع ان البريطانيين وجدوا ان من مصلحتهم تسليم الحديدة للدارسي في محاولة منهم للضغط على الامام يحيى حتى يقلل من تأييده للعثمانيين فسلموها له على كره من اهله، كما ان ما فعلوه كان تدخلا ذريعا في مسألة توزيع الاراضي والحدود بين الحكام المحليين المتناحسين مما اثار ثائرة الامام يحيى<sup>(٢٠)</sup> لحرمان بلاده من منفذ طبيعي وضريبي لمنطقة زراعة البن اليمني، كما انها منغذا طبيعيا لمدن تهامة الاخرى والميناء الطبيعي لصنعاء الا ان الدارسي فشل في ادارة هذا الميناء بعد ان ولى عليه ابن عمه مصطفى الدارسي الذي اشتاط الاهالي غضبا من تصرفاته خصوصا لفرضه المكوس الباهظة على التجارة، واستبداده بالسكان مما جعلهم يفضلون الهجرة إلى عدن على الرغم من ان الادارة قاوموا هذه الهجرة، وقبضوا على العديد من التجار المهاجرين<sup>(٢١)</sup> وقامت بأسرهم في ميناء مبدى<sup>(٢٢)</sup> وعلى كل حال فانه نتيجة لهزيمة ألمانيا وحليفاتها لدولة العثمانية في الحرب العالمية الأولى فرض الحلفاء شروطهم على العثمانيين والتي كان منها اقتطاع البلاد العربية عنهم، وتقسيمها إلى عدة دويلات ونتيجة لذلك انسحب المتصرف العثماني من عسير، وسلم ادارتها إلى آل عائض الذي نجح الدارسي في استئصالهم إليه، وضمهم تحت لوائه، فتخلت عسير تحت السيادة الدارسية نتيجة لاتفاقية صيدا، والتي اتفق بمقتضاها على ان تدخل عسير في حماية الادارة، وان يكون حسن بن عائض نائباً على إمارة عسير من قبل الدولة الدارسية على ان يرافقه في ادارة هذه الامارة مندوبا ساميا من قبل الدارسي وهو ابراهيم الشوكاتي في مقابل ان يدفع الادارة مبلغ خمسة آلاف ريال لآل عائض كمردب شكري لروساء قبائل عسير.

واستمرت الأمور على هذا المتوال حتى نهاية عام ١٣٣٧هـ/١٩١٨م وبعدها بدأ حسن بن عائض يشهد على سيادة الادارة على بلاده، وينأوى مندوبهم في عسير، كما امتنع عن ارسال الزكاة المقررة على اهالي عسير إلى الدارسي، وامر بصرفها على رؤساء قبائل عسير كمقررات سنوية لهم، وبالرغم من ذلك فقد اتبع الدارسي سياسة التلاينة مع آل عائض في اول الامر خشية ان يفلت الزمام من يده ولما أصبر آل عائض على معارضتهم للسيادة الدارسية، وتصلتهم من اتفاقية صيدا رأى محمد الدارسي استعمال سياسة الضغط معهم حتى ينزفوا من موقفهم فقطع المواصلات مع عسير، وحاصرها اقتصاديا ولما لم يجد في ذلك نفعا تشجع آل عائض على الثورة ضدهم والخروج على طاعتهم، ونتيجة لذلك جهز الدارسي جيشا بقيادة حمود مرداب لدخول عسير واخضاعها بالقوة، ولما تقدم الجيش الدارسي في مركز الشعين بطريق وادي العوص والعقبة (الصماء) وجد رجال عسير في انتظاره، وعلى أهبة الاستعداد، وحدثت معركة انتهت

<sup>(٢٠)</sup> الفروق لياطة: مرجع سابق، ص ٦٦٣.

<sup>(٢١)</sup> كبد مصطفى سالم: مرجع سابق، ص ٢٦٢. وفروق لياطة: الحكم العثماني لليمن، ص ٤١١.

<sup>(٢٢)</sup> Jacob, H.F.: Kings of Arabia, P. 249.

بانتصار العسيريين، وتراجع الجيش الإدريسي<sup>(١٢)</sup> هذا في الوقت الذي كان فيه أمام اليمن قد بدأ يتحدرش بالادارسة بعد استيلائهم على الحديدة خصوصا وأنه احس بالقلاب موازين القوى في غير صالحه، ففي حين كان بطمع في توسيع رقعة مملكته بعد خروج الأتراك من بلاده، وذلك بالاستيلاء على اجزاء واسعة من أملاك الادارسة او القضاء عليهم نهائيا وجد الانجليز يسلمون الإدريسي ميناء الحديدة، مما أثار ثأركه، وجعله يشعل نيران الحرب مع الادارسة.

وإلى جانب هذا وذلك كان الهاشميون يروجون دعايتهم السياسية في منطقة المخلاف السليماني وعسير بهدف توطيد نفوذهم فيها والتخلص من نفوذ الادارسة<sup>(١٣)</sup>، كما كان الشريف حسين يعد لترتيب قيام ثورة عربية كبرى ضد العثمانيين مما جعل بريطانيا تحاول التوفيق بينه وبين الإدريسي وخلال ذلك الوقت المعسب بالنسبة للادارسة توفي السيد محمد الإدريسي في يوم الثلاثاء الثالث من شعبان ١٢٤١هـ/الموافق أوائل عام ١٩٢٣م وقيل أن تنتقل إلى خلفاء الإدريسي ينبغي لنا أن نذكر أن محمد الإدريسي كان وبحق المؤسس الفعلي لامارة الادارسة في منطقة المخلاف السليماني.

لقد قال عنه البعض انه استعمل السفور والكهرباء بقصد إقناع الأهالي بولايته، واتهمه البعض الآخر بادعاء المهدية والوقوف بجانب اعداء الاسلام، ومع ذلك فلا يستطيع احد أن ينكر انه استطاع بما يتمتع به من ذكاء وعلم وحكمة سياسية وقوة إرادة أن يحافظ على الأمن في امارته ويوقف المنازعات المستمرة بين القبائل ويقلع الناس باتباع قواعد الدين، كما لا يستطيع احد أن ينكر انه وقف ضد العثمانيين بعد أن رأى منهم عدم الاهتمام بالمصالح العربية والاسلامية ومحاولتهم اضعاف حركة التنريك على العرب، وترك بلادهم تتوح بالمظالم وتمج بالفتن.

هذا عن رأينا في دور السيد/ محمد الإدريسي اما عن خلفائه فيمكننا القول أنه بعد وفاة الإدريسي انعقدت البيعات الخاصة والعامة لولده الأمير علي\* من أهل الحل والعقد بجهات صبيبا وما والاها، ولكن نظرا لصغر من هذا الأمير، وقلة خبرته لم يستطع تسيير دفة الأمور فحدثت منازعات بينه وبين وزراء والده الذين أصبح لا يطمئن اليهم، وبشكل في نواياهم كما قام عمه الحسن بمنازحته على ملك الادارسة، هذا بالإضافة إلى مجاهرة ابن عم والده مصطفى الإدريسي برغبته في الإطاحة به حيث كان يرى أنه أولى بتولى حكم الادارسة منه.<sup>(١٤)</sup>

كل ذلك جعل الأمر يقلت من الأمير علي وجعل امارة الادارسة تمر في أدوار الاضطراب فدخلت فقامت الحرب الأهلية بين أفراد هذه الأسرة في عام ١٣٤٤هـ/١٩٢٥م وكان من نتيجتها تفكك الامارة

(١٢) محمد بن احمد العقيلي: مرجع سابق، ج ٢، ص ٧٢٨-٧٤٠.  
(١٣) خليفة احمد علي: الثلاثات اليمنية السعودية، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة القاهرة ١٩٨٣، ص ٥١.  
(١٤) مبارك الحرشي: مرجع سابق، ص ٦٢.

الاندريسية، وتقسيمها إلى قسمين قسم تحت حكم الأمير علي والأخر سيطر عليه عمه الذي جعل من مدينة الزيدية مقراً لملكه<sup>(١٧)</sup> وقام بجمع الجيوش وتعبئتها للتخلص من ابن أخيه.

وفي محاولة لاصلاح ذات البين بين الطرفين قام احد السنوسيين بالوساطة، ونظراً لتمسك الأمير علي برفض المصالحة فقد رأى السنوسي خلع من الامامة واقامة عمه الحسن مكانه، وإزاء ذلك لم يجد الأمير علي بداً من ترك العاصمة صنيبا والاتجاه إلى جيزان حيث جعل منها مقراً لأقامته، نظراً لوجود حماية عسكرية قوية تابعة له في منطقة الحفاير، ونتيجة لذلك فنقل جهاز السلطة الحاكمة من صنيبا إلى جيزان، وكاجراء وقائي له قام بعزل الكثيرين من مساعديه الذي عاونوا والده، وأخذ يستعين بعناصر جديدة من المواليين له بالرغم من قصور خبرتهم السياسية والإدارية.<sup>(١٨)</sup>

ونتيجة لاضطراب الأمور في الإمارة الاندريسية بدأ الإمام يحيى في استغلال هذه الفرصة، فأخذ في بسط سيطرته على الأراضي اليمنية التي كانت تحت حكم العشائريين وأن يحصر الإدارة في الجزء الشمالي من صير فقط، كما أرسل قواته التي تزيد عن خمسين ألف مقاتل للاستيلاء على كل ما يقابلها من بلاد الإدارة ونتيجة لتدهور الأمور وعدم قدرة الأمير علي مواجهة الموقف تم خلع ومباينة عمه الحسن أميراً على تهامة عسير في عام ١٣٤٥هـ/١٩٢٦م. وخلال ذلك الوقت كان الملك عبد العزيز آل سعود قد أرسل وفداً من قبله مؤلفاً من ابن عسكر، ومحمد بن دليم ومصطفى النعمي، وعبد الرحمن طاهر النعمي، وعبد الوهاب أبو ملححة للاطلاع على حقائق الأمور، ومحاولة التوفيق بين أفراد الأسرة الاندريسية.<sup>(١٩)</sup> وما أن وصل الوفد إلى منطقة النزاع حتى كان الحسن الاندريسي قد رجحت كفته وأراح ابن أخيه واجبره على التنازل له عن الامامة، والفرار إلى عدن.

ونظراً لاستمرار الإمام يحيى في توسعه داخل إمارة الإدارة تحمل الحسن الاندريسي عبء الكفاح، وأخذ يستنهض الهمم لمقاومة القوات الغازية<sup>(٢٠)</sup> ولكنه لم يستطع فقد استولى الإمام يحيى على معظم منطقة تهامة الجنوبية. وعندما رأى السيد/ الحسن الاندريسي أن القوات اليمنية تزحف منتصرة على الإدارة لتنتهم ما تبقى من أمارتهم عرض على الإمام يحيى سحب القوات الغازية والاعتراف باستقلاله لداخل على أن يعترف له بالسيادة على أمارته، ولما رفض الإمام يحيى ذلك واستمرت قواته في مواصلة زحفها طلب الحسن الاندريسي من الزعيم الإسلامي أحمد الشريف السنوسي المشورة فأشار عليه أن من الخير له أن يرتبط بمعاهدة صداقة وحماية مع آل سعود، فرجح الحسن ذلك والتكبد لتلك المهمة فتوجه إلى الحجاز<sup>(٢١)</sup>

(١٧) الوشلي: مصدر سابق، ص ٢٢٥، ٢٢٨.

(١٨) مبارك الحرسلي: مرجع سابق، ص ٦٢-٦٣.

(١٩) محمد بن أحمد العقيلي: مرجع سابق، ج ٢، ص ٧٦٠.

(٢٠) أحمد طريبن: الوحدة العربية ١٩١٦-١٩٤٥، القاهرة، معهد الدراسات العربية العالية ١٩٥٩، ص ١٣٩، وايضا أمين

الريحاني: مرجع سابق، ج ١، ص ٣٠٢.

(٢١) محمد بن أحمد العقيلي: مرجع سابق، ج ٢، ص ٧٦٠.



كما توجه وقد أُرسل إلى الرياض صاحبة العلاقات التاريخية بالمخلاف وعسير للاتفاق حول تسمين منطقة المخلاف ضد الأطماع الموجهة إليها.<sup>(٣١)</sup>

ضم الملك عبد العزيز إمارة الإدارة إلى ملكه:

وعلى أثر ذلك عقدت معاهدة مكة بين الملك عبد العزيز والسيد/ الحسن الإدريسي في ١٤ ربيع الثاني ١٣٤٥ هـ الموافق ٢١ أكتوبر ١٩٢٦ م<sup>(٣٢)</sup> وبمقتضاها تنازل السيد/ الحسن عن إدارة كافة شئون إمارته للملك عبد العزيز الذي نصبه حاكماً عليها من قبله، وأمر بتشكيل مجلس شورى لمساعدته ينتخب رجاله من أهل الحل والعقد على أن تكون الأحكام والحدود الصادرة منه طبقاً للشرع الشريف.<sup>(٣٣)</sup> وبمعاونة الملك عبد العزيز اتخذ السيد/ الحسن بلدة أبو عريش عاصمة له يقوم فيها بإدارة شئون إمارته الداخلية في حين يقوم الملك عبد العزيز بإدارة شئون الإمارة الخارجية ويضمن سلامة حدودها. ولكي تتضح الأمور أمام الإمام يحيى أرسل الملك عبد العزيز إليه نسخة من معاهدة مكة للتصديق عليها، ولكن مع ملاحظة إمارة الإدارة التي أصبحت تحت حمايته، وكانت المفاجأة عنيفة بالنسبة للإمام فأما أن يقر المعاهدة ويعترف بها، ولما أن يرفضها، ويصطدم بالقوات السعودية، وتكون الأمور غير محدودة العواقب وقد جنح الإمام يحيى إلى السلم فأجاب على رسالة الملك عبد العزيز ببرقية تتضمن الموافقة ثم أمر قائدته بإيقاف الحرب مع الإدارة والاستجابة إلى دعوة الملك عبد العزيز إلى المؤتمر الإسلامي في مكة الذي انعقد في عام ١٣٤٥ هـ/ ١٩٢٦ م فأرسل وفداً إلى المؤتمر كانت مهمته التفاوض بشأن تحديد الحدود بين البلدين التقيين، وعقد معاهدة تنظم العلاقة بينهما، وقد عاد الوفد بحمل مقترحات الاتفاق إلى الإمام فلم تزل من جانبه قبولاً، ونتيجة لذلك تعددت الرسل والوفود بين الرياض وصنعاء لتسوية الأمور، وسافر مندوبو البلدين إلى عسير لدراسة الموقف والاتفاق على حل نهائي<sup>(٣٤)</sup> وخلال ذلك تفاقت الخلافات بين الإدارة ولزادته المواقف سوءاً فيما بينهم مما جعلهم يفضلون الانضمام نهائياً إلى آل سعود والاتصاف تحت لوائهم فتم الاتفاق في عام ١٣٤٩ هـ/ ١٩٣٠ م تناول بموجبه السيد/ الحسن الإدريسي ومجلس شؤره عن إدارة كافة شئون إمارته إلى جلالة الملك عبد العزيز آل سعود، وبموجب ذلك أصبحت هذه المنطقة رسمياً ضمن أجزاء المملكة العربية السعودية وانتهت سلطة الإدارة عليها.

وعندما نقلت أجهزة البرق هذا النبأ إلى العالم كانت هناك مباحثات دائرة في روما بشأن المصالح البريطانية والإيطالية في منطقة البحر الأحمر وكانت إيطاليا تطالب بعسير، وقبل أن تنفق الدولتان على تسمين

<sup>(٣١)</sup> Toynbee: Op.Cit, P. 323.

<sup>(٣٢)</sup> أمين سعيد: تاريخ الدولة السعودية، ج ٢، الرياض، دار الملك عبد العزيز، ص ٩٥.

<sup>(٣٣)</sup> جورج انطونيوس: مرجع سابق، ص ٣٧٢، حافظ وهبة: مرجع سابق، ص ٢٨.

<sup>(٣٤)</sup> المختطف: المجلد الرابع والثمانون، الجزء الخامس ١٩٣٤، مقال للأستاذ أمين سعيد تحت عنوان "دولة اليمن ودولة آل سعود" بحث تاريخي في نشأتها وتطورهما، ص ٦٠٤.

منطقة البحر الأحمر كانت منطقة المخلاف السليماني وعسير قد دخلت ضمن السيادة السعودية. والمسؤال الذي يطرح نفسه هو لماذا استقل أهالي المنطقة لضمهم لأمارتهم إلى آل سعود؟

الواقع أن الأهالي كانوا في معظمهم من المعتنقين للمذهب السلفي الذي تأصلت جذوره في نفوسهم، ومن هنا كانوا يحملون في صميم قلوبهم اسدق الولاء والاكبار لآل سعود، يسيرن تحت لوائهم ودائمًا ما يلجئون إليهم في حل مشاكلهم.<sup>(٢٧)</sup> وبالرغم من ذلك، ومع أن زعماء العديد من القبائل كانوا قد أرسلوا بتوقيعهم إلى الملك عبد العزيز بما يتضمن الموافقة على قضمهم بلادهم إلى مملكته، وبالرغم من أن الحكومة السعودية كانت قد أمرت موظفيها بأن يلاحظوا منزل السيد/ الحسن الانريسي ومكانته ويحافظوا على هيئته وكرامته هو وعائلته.<sup>(٢٨)</sup> فإن السيد/ الحسن لم يلبث أن حاول التخلي، عما اتفق عليه والانقضاض على الحكم السعودي فتقدم في صيف ١٣٥١هـ/ ١٩٣٢م معلنا عصيانه، وتمكن من احتلال بلدتي "بو عريش" و "جيزان"<sup>(٢٩)</sup> ولكن ذلك الموقف لم يستمر سوى ثلاثة أيام حيث وصلت الامدادات العسكرية السعودية ودارت معارك بين فلول الادارة والقوات السعودية، تمكنت فيها القوات السعودية من استعادة زمام الأمور، واستطاعت القضاء على الفتنة مما اضطر الانريسي إلى الفرار هو وعائلته إلى "حرض" طالبا اللجوء السياسي، فزين له الامام يحيى إمكانية البقاء وأمر بإقامته في مركز "ذهب حجر" بمقاطعة حرض.

ونظرا لخطورة ذلك الموقف طلب الملك عبد العزيز من الامام يحيى إعادة الادارة للقارين إليه عملا بالاتفاقات المعقودة بينهما<sup>(٣٠)</sup> وحفاظا على السلام بين البلدين، ومن أجل ذلك دارت عدة مفاوضات طلب خلالها الامام يحيى العفو عن الادارة للجائنين إليه. وعن كل ما حدث منهم حيث أنهم استجاروا به، وقد وافق الملك عبد العزيز على طلب الامام يحيى حفاظا على حسن الجوار بين بلديهما فأرسل برقية إليه قال فيها: "إن جميع من التجأ إليكم له امان الله على ماله ودمه، وله عفو شامل عن جميع ما مضى وحدث في هذه الفتنة الشيطانية سواء في حقوق الحكومة أو حقوق الاملين وأن جميع من اعطيتهموه الامان والمكان فهو تام على وجهه ما يحذرون شيئا سواء في ذلك الحسن وآله وغيره من الرعية".<sup>(٣١)</sup>

وقد أجاب الامام يحيى على برقية الملك عبد العزيز ببرقية طلب فيها أن يحرر للسيد/ الحسن عفوًا وأمانًا خاصًا به وقد رد عليه الملك شاكرًا له سعيه للإصلاح وقال: "انه يحظى امان الله وعهده للحسن ومن

(٢٧) أحمد عبد القوي عطار، سفلى الجزيرة، ج ٢، ص ٣٢٣.  
(٢٨) النساء في ١٩ رجب ١٣٤٩هـ (١٠ ديسمبر ١٩٣٠م) تحت عنوان "بين السعود وعسير".  
(٢٩) أحمد طرين: المرجع السابق، ص ١٨٤.  
(٣٠) كان معاهدة العفو التي عقدت بين الجانبين السعودي واليماني تقضي على الامام بتسليم الادارة للقارين إليه.  
(٣١) المقطع: مقال سابق ذكره، ص ٣٠٥.

تبعه على دمه وشرقه وإن جميع ما فات منه لا يعاقب عليه، وأنه سيكون اخا عزيزا له<sup>(٨٠)</sup> بشرط أن يكون هناك ضمانا بحسن تصرفاته. كما وافق الملك عبد العزيز على أن يدفع مرتبا شهريا للتحريسي. ونتيجة لتوسط الامام يحيى وافق الملك عبد العزيز على عقد مؤتمر في "موسدى" بحضوره السيد/ الحسن ورجاله ومندوب من قبل الملك عبد العزيز ومندوب من قبل الامام يحيى لتسوية الأمور المتعلقة. وقد عقد هذا المؤتمر في أواخر شوال ١٣٥١هـ/ ١٩٣٢م واستمر شهرين وانفض دون نتيجة. وحرصا من الملك عبد العزيز على المحافظة على الأخوة الإسلامية بين مملكته ومملكة اليمن، وعدم إثارة مشاكل على الحدود بينهما طلب عقد معاهدة لتثبيت الحدود بين البلدين، وانتهى الأمر بعقد معاهدة الطائف في ٦ صفر ١٣٥٣هـ (٢٠ مايو ١٩٣٤م) وفيها اعترف كل من البلدين باستقلال البلد الآخر. وسيادته التامة على أراضيه، كما اتفق على تسليم الإدارة الفارين إلى اليمن للسلطات السعودية حيث تتم إقامتهم في مكة المكرمة.<sup>(٨١)</sup>

ونتيجة ذلك انتهت عملية التوتر القائمة بين البلدين، وأصبحت منطقة المخلاف السليماني وعسير جزءا عزيزا في جسد الوطن السعودي تتمتع مثل غيرها من أجزاء المملكة بما جباها الله به من الأمن والحل واليسر والرخاء، كما شملت الإصلاحات والمشروعات العمرانية التي يشهد بها كل من يزور المنطقة الجنوبية من المملكة أو يطرق بابها.

<sup>(٨٠)</sup>المقتطف: مقال سابق.  
<sup>(٨١)</sup>عن تفاصيل معاهدة الصداقة الإسلامية والأخاء العربي بين المملكة المتوكلية اليمنية والمملكة العربية السعودية في ٢٠ مايو ١٩٣٤م، انظر:  
 محمد فؤاد شكرى وآخران: نصوص ووثائق في التاريخ الحديث والمعاصر، القاهرة، الانجلو المصرية، ص ٤٨٨-٤٩٠.

## ثبت المصادر والمراجع

- أولاً: وثائق منشورة:
- Hurewitr, J.C: Diplomacy in the Near and Middle East, 2 Vols , New York, 1956.
- ثانياً: المصادر والمراجع العربية:
- ♦ أحمد حسين شرف الدين: اليمن عبر التاريخ من القرن الرابع عشر قبل الميلاد إلى القرن العشرين، القاهرة، الطبعة الأولى ١٣٨٢هـ/١٩٦٣م.
  - ♦ أحمد طربين: الوحدة العربية بين ١٩١٦-١٩٤٥، القاهرة، معهد الدراسات العربية العالمية ١٩٥٩.
  - ♦ أحمد عبد الغفور عطار: صقر الجزيرة، ج ٢، جدة ١٣٨٤هـ.
  - ♦ اسماعيل بن محمد الوشلي التهامي: من تاريخ اليمن الحديث: دليل نشر النشاء الحسن المنبئ ببعض حوادث الزمن من الغرائب الواقعة في اليمن، تحقيق محمد الشامي، صنعاء، الطبعة الأولى ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م.
  - ♦ أمين الريحاني: ملوك العرب، ج ١، بيروت ١٩٥١م.
  - ♦ أمين سعيد: تاريخ الدولة السعودية، ج ٢، الرياض، دار الملك عبد العزيز.
  - ♦ جلال يحيى: الثورة العربية، القاهرة، دار المعرفة ١٩٥٩م.
  - ♦ جورج بطونديوس: نقطة العرب، تعريب علي حيدر الركابي، دمشق، مطبعة الترقى.
  - ♦ جون بالدرى: العمليات البحرية البريطانية ضد اليمن إبان الحكم التركي ١٩١٤-١٩١٩، ترجمة سيد مصطفى سالم، القاهرة، المطبعة الفنية دت.
  - ♦ حافظ وهبة: جزيرة العرب في القرن العشرين. القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٦٠م.
  - ♦ خديجة أحمد علي: العلاقات اليمنية السعودية، رسالة ماجستير غير منشورة، القاهرة، مكتبة كلية الاقتصاد والعلوم السياسية بجامعة القاهرة، ١٩٨٣م.
  - ♦ سمائر الدراسات العليا للتاريخ الحديث بجامعة عين شمس: البحر الأحمر في التاريخ والسياسة، القاهرة ١٩٨٠.
  - ♦ سيد مصطفى سالم: تكوين اليمن الحديث، القاهرة، معهد الدراسات العربية العالمية، ١٩٦٣.
  - ♦ عبد الواسع بن يحيى الواسعي: تاريخ اليمن المسمى فرجة الهموم والحزن في حوادث وتاريخ اليمن، القاهرة، الطبعة الثانية.
  - ♦ فاروق عثمان: لياطة.
  - ♦ (أ)الحكم العثماني في اليمن ١٨٧٢-١٩١٨م بيروت، دار العودة، ١٩٧٩.

(ب) عدن والسياسة البريطانية في البحر الأحمر- ١٨٣٩-١٩١٨ ، القاهرة، الهيئة المصرية

العامة للكتاب، ١٩٧٦.

♦ مبارك محمد الحرشني: التنظيم الاداري والمالية في تهامة عسير خلال الاشراف السعودي، جدة، دار العلم، ١٤٠٥هـ.

♦ محمد بن احمد العقيلي:

(أ) تاريخ المخلاف السليماني، جزءان، الرياض، دار اليمامة، الطبعة الثانية،

١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م.

(ب) مذكرات سليمان شفيق باشا متصرف عسير (تحقيق)، نادي تبها الأدبي، الطبعة الأولى

١٤٠٥هـ/ ١٩٨٦م.

♦ محمد فؤاد شكرى وآخران: نصوص ووثائق في التاريخ الحديث والمعاصر، القاهرة، الانجلو المصرية.

♦ مديحة درويش: العلاقات السعودية المصرية ١٩٢٤-١٩٣٦، رسالة دكتوراه غير منشورة ١٩٧٨م، مكتبة جامعة القاهرة تحت رقم ٢٥٥٦.

♦ نخبة من الاساتذة: معجم اعلام الفكر الانساني، المجلد الأول، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٤.

ثالثا: المراجع الأجنبية:

♦ Hogarth: Arabia, Oxford 1922.

♦ Jacob, H.F. Kings of Arabia, London, 1923.

♦ Toynbee, Arnold J: Islamic world, Survey of International Affairs vol 1, London, 1927.

رابعا: الدوريات:

♦ الأهرام، اغسطس ١٩٠٩.

♦ العرب، يوليو - اغسطس ١٩٨٦.

♦ المساء، ديسمبر ١٩٣٠.

♦ المقتطف، سبتمبر ١٩٢١، مايو ١٩٣٣.

♦ المقطم، ديسمبر ١٩٣٠.

♦ المنار، المجلد ١٦.

## فهرست

الموضوع	الصفحة
١ - الدولة العثمانية والمغرب العربي	
مقدمة	٣ - ٧
الفصل الأول	
الجزائر تحت الحكم العثماني	٩ - ٣٠
الفصل الثاني	
ليبيا ( طرابلس الغرب ) خلال الحكم العثماني	٣١ - ٥٦
الفصل الثالث	
تونس تحت الحكم العثماني	٥٧ - ٦٦
الفصل الرابع	
العثمانيون ومراكش	٦٧ - ٧٤
٢ - موقف الدولة العثمانية من الثورة العربية	
مقدمة	٧٥ - ٨٥
الإدراصة في المخلاف السليماني وعسير	٨٧ - ١٠٨

